رفيق الموتى



الكتـــاب: رفيق الموتى

المــؤلــف: إيمان البدراوي

تنسيق داخلي: عمر جوبا

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيداع: 2020/2314

I. S. B. N: 978-977-992-101-4

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

عصير الكتب للنشر والتوزيع



أنا من رأيتكم جميعًا، لكن أحدًا منكم لم يرني!

د. إيمان البدراوي




عصير
الكتب
للنشر و التوزيع

يا له من جُهد أن تبقى على قيد الحياة..

فرانس كافكا

بجبين متعرق نظر للسماء المتوهّجة بشمس تضيء عينه، لم يحمل سوى أربعة جنيهات وجاروف كبير، قلبٍ مثقل وحيد، وآلام تمنع الشمس من إضاءة وجهه الأسمر الباهت.

ضرب بجاروفه الأرض فامتلأ ترابًا، لطالما ظنّه غبار أموات سحق وجودَهم الدهرُ، غطّى التربة أمامه بذاك الثّرى، ثم تسمر ناظرًا لها.

صديقه (صالح) -وأكثرهم فصاحة- اقترب منه، حطّ بيده على كتفه قائلًا بحزن: «البقاء للّه صديقي، وأخي أيضًا، عهدتك متماسكًا، فلا تسمح لثقل الحياة بكسرك هكذا».

لم يبد أي ردٍ فعل، أمسك الدلو المليء بالماء، فقاطعه صديقه (فادي)؛ محاولًا إعفاءه من كل تلك الضغوط؛ فتمنع (ثائر) عن قبوله العون، ورش التربة لتصبح طينًا.

لم يحضر جنازة والده سوى صديقيه المقرّبين، وبعض الغرباء الذين يحاولون كسب الثواب لا أكثر.

أصبح بلا عائلة، لطالما شعر بها، لكن اليوم أصبحت حقيقة.

بغرفته القابعة بين المقابر، جلس أمام مرآة صغيرة مهشمة؛ يتأمل وجهه الذي يشبه والده قليلًا؛ سمار البشرة عينه، الأنف

الطويل الرفيع، حدة النظرات، ولكن عينه عسلية، ليست صافية؛ كأن بداخلها مئات الأسرار، له فمٌ والدته الرقيق، جسده الهزيل يزداد شحوبًا يومًا بعد يوم، ورغم حرارة الجولا يزال يرتدي الملابس طويلة الأذرع، والمغلقة حتى منتصف رقبته.

صديقه (صالح) يخالفه الملامح تمامًا، أبيض البشرة كأنَّ الشمس لم تزر وجهه يومًا، عينه بنية، مطلق للحيته السوداء؛ يبدو وجهه خلالها كبدر بجوف الظلمة، بيد أنه ليس جذابًا أبدًا.

و(فادي) متوسط الصفات، قمحي البشرة، ملامحه جريئة؛ عين واسعة، شعر متوسط الطول مضطرب الهيئة، فم ضاحك، وجسد مليء بالطاقة والحياة.

قال (ثائر) بصوت هزيل: «لا أحد منكما يشبهه؛ هذا يمنحكما الأفضلية».

تساءل (صالح) عما يقول؛ فأردف (ثائر) بنبرة شبه مسموعة: «سأبقى وحدي هذه الليلة، غادرا من فضلكما»

ألحّا عليه؛ لكن رغبته الصامتة برحيلهما أجبرتهما؛ خافا أن يتسببا بضيق له، ورحلا...

مرت كلمات أبيه الأخيرة قبيل موته بساعات: (**سامحني بني، وادع لي الله أن تسامحني حنان، سامحوني بني، لم أقصد**)...

لكن الندم لم يكن بوقته الصحيح؛ أزف ميقات الغضب لا السماح. أخرج (ثائر) ورقة من الكومود بجانب فراشه الضئيل، كتب رسالة لوالده لن يقرأها:

(السيد والدي،

لقد رحلت، وظهري لم ينكسر برحيلك، لم أفقد السند، لم تهاجمني الوحدة، ولم ينحر جيدي الحزن، لأنك كسرته بحياتك، نبذتني بغربة بعيدة، الوحدة تقطن قلبي منذ زمن، الفقر ينحرني ويؤلم معدتي، سوّمتني الذل والإهانة أمام الجميع، سجرتني بسوط من لهيب قسوتك، أعطيتني قليلًا وأكديتني من حبك، لأنني فقط لم أحقق أيًا مما رغبت، لأنني فشلت بأن أكون ما تريد، فشلت يا أبي أن أكون الشخص الذي تريد صنعه، رسبت بتحقيق حلمك لا أحلامي التي لا تدري عنها شيئًا.

لقد مت إثر أزمة؛ وجب الشعور تجاهك بالرحمة، إذ ما الذي آل بك للحزن الشديد حتى يباغتك ذاك المصاب؟! أموت أختي حنان؟ أفقدك ابنتك العزيزة التي حققت آمالك؟! أم موت آمالك؟

لم أبك، أشعر بمضض شديد، بأنك أورثتني العجز، بأن كل ذرة بي تكرهك وتود الانتقام لكرهك لي طيلة تلك الأعوام.

رحمك الله وسامحك، ولكني لن أفعل...

ابنك، أو هذا ما ظننت).

طوى الورقة ونبذها للكومود ثانية، يشفق من البقاء حيًا أكثر من هذا، الحياة عذابه، والألم رفيقه الأوحد، هكذا ظل يردد عقله الذي مارت الأفكار به. تمتم: (لم تفهموني قط، حتى حينما سترون القطع برسغي، لن تفهموا السبب).

ابتسم متذكرًا قائلتها، أمسك مشرطًا يحتفظ به دائمًا، نظر ليده بتردد، ترتجف، الرغبة بالموت تجتذبه كأنها المهرب، والخوف من المجهول يربطه، يبتلع لعابه سبع مرات خلال ثلاثين ثانية تجول بهم الفكرة برأسه ثم تعاود أدراجها. وأخيرًا قرر، قال باسمًا بحزن: «لا تحزني بارديس» ثم مرر المشرط بقوة وسرعة كي لا يتراجع. ارتجفت يده أكثر، يقاوم الرغبة بالتراجع، يراقب الدم السائل على يديه، يتخيل ما حدث، أكان هكذا؟! أم أنَّ الهذيان وجد مجرى لعقلي؟!

تنفسه يضعف، رأسه يهدأ ولكن، يجلو صوت طرق بعيد به، شيء ما يطرق برأسه مرتين بالثانية، هكذا شعر...

الدم يغرق الأرض فقط، إنه حريص على عدم إفساد المكان؛ إذ ربما يوقف كلَّ شيءٍ بآخر لحظة كعادته، جسده أصبح باردًا، الدماء تكرهه! تتركه بسرعة شديدة؛ ابتسم بسخرية مفكرًا: «حررتك يا ملعونة، أليس كذلك؟»

زاد الطرق ثم تحول لموسيقا، موسيقا لأغنية هادئة، وتحول الضوء الخافت بالمنزل لضوء قوي بمكان كبير، ذاكرته أيضًا ارتجفت وعادت لثمانية أشهر ماضيين...



الثاني عشر من يناير

يجلس (ثائر) بمقهى قريب من سكنه الجامعي، يتناول فطوره المعتاد، الأقل سعرًا. هذا النهار يجد شابة سامدة حزينة وحدها

أيضًا، لطالما أزعجه أنه وحيد دائمًا؛ أصدقاؤه نجحوا باجتياز تلك المرحلة التعليمة؛ بينما هو لا يزال محاصرًا بين براثنها. حاول عكس بعض الضوء على عينها باستخدامه الأدوات المعدنية؛ علّها تنتبه، لكن أثرًا لم يحدث!

طفق يجول بالمكان، يتفقد الأطعمة والمشروبات المختلفة التي يقدمها المقهى، يتأمل اللوحات على الحائط، يقف فجأة لضبط ملابسه الرخيصة ثم يجلس ثانية متعرقًا، بعد قرابة ربع الساعة جلس خجلًا من فعلته، حامدًا الله أنها لم تنتبه.

وقفت الفتاة فجأة، نقدت النادل ثم تحركت بتؤدة نحو الباب، تراجعت قليلًا زافرةً، مغمضة عينها مقاومة تلك الأصوات برأسها، نظرت إليه فأدار وجهه سريعًا، حركت شدقيها محاولة الضحك، ذهبت له سريعًا، أرجعت الكرسي إلى الوراء ثم جلست أمامه مباشرة، قائلة بثقة:

- لست مضطرًا لتلك المحاولات ولفت انتباهي، يمكنك ببساطة المجيء والتحدث.

- ربما هذا سوء فهم؛ لا أعرف عما تتحدثين، فقط هذا المجلس لا يريحني

ابتسمت لكذبته ثم أدرفت:

- وأنا بارديس، صديقة سيئة، وأومن أن العلاقات البشرية أعمق من التلميحات، وأقرب للمباشرة.

حاول التملص من كشفها له، لكن عينها الماكرة تخبره أن توتره البادي عليه يشي به. أخبرته أنها تأتي للعلاج النّفسي بالعيادة المقاربة للمقهى، كلماتها قليلة مضطربة، حزينة وحماسية، لم يفهمها، لكنه كان سعيدًا.

قالت:

- بالحقيقة شعرت أنك مثلي، رغم محاولتك الغريبة تلك.

- مثلك؟

- نعم، بك اختلال وحزن، أتعرف أنك لم تنتبه لشكلي وملامحي، إنه الحزن الذي يسلسل عنقك قد انجذب لشبيهه.

- ربما أنتِ مخطئة

- وأنت تكابر. لا داع لهذا، أتعلم؟ هناك أناس قدر لهم الحزن والتعاسة، لدرجة أطفأتهم فأصبحوا بلا قدرة على الحياة أو تحقيق أي شيء، لا رغبة، لا شغف، حتى لو كان مبهجًا للبشر الطبيعيين، ونهايتهم الموت من الأحزان، أو مشرط بسيط يمر على أيديهم بشكل طولي بلحظة من السلام واللاوعي، فقط تحقيقًا لهاجس لا يدرون مسقطه.

- وأنت منهم؟

- قل سيدتهم

- محظوظ بأنني قابلت سيدتي

- وأنا سعيدة لجرأتي وحديثي معك، وسامحني للكذب؛ لا أعرف مصطلحًا أفضل من كلمة (سعيدة) تلك، بيد أنه شيء جيد.

حدثها قليلًا عن جامعته، الأمطار بالخارج، حلمه بأن يصبح مذيعًا بالراديو، بأن يصبح غنيًا، ألوانه المفضلة، وذوقه الغريب في الاغاني، او كما اسمته هي: (اللاذوق تقريبًا).

قال:

- ومم تخرجت؟

- كلية الألسن

- بيد أنك لا تتحدثين كثيرًا!

- وهذه مزحة سخيفة سيد ثائر، سررت بلقائك

وقفت فجأة عقب كلمتها ففزع، قال:

- أراحلة الآن؟

- لدي موعد، أنسيت؟

تلعثم؛ يود بقاءها، أن يطول الحديث، أن يخبرها كل شيء عنه، ربما أسراره كلها، ولم يعرف السبب قط!

نظرت لعينه مباشرة، سألته رقم هاتفه، تأخر الرد، يتأملها للمرة الأولى، بشرتها بيضاء، عينها بنية، وجنتاها حمراوين تنبض بهما الحياة التي فارقت روحها، وجهها حزين جدًّا...



أفاق من إغماءته، وجه شاب قريب منه يتفحصه، بشرته بيضاء، عينه سوداء قاتمة غامضة جدًّا، شعره أسود كذلك، تراجع الشاب بعدها أفاق (ثائر)، أمسك مفكرة سريعًا وكتب بها: (حمدًا على سلامتك سيد ثائر)، تفقده ثائر ثم ذراعه المضمد، الإضاءة خافتة لكن تؤلم عينه، قلبه ينبض جاهدًا، يصارع ضعفه، جسده كالثلج. كتب الشاب ثانية: (اعتاد والدك استضافتي أحيانًا، أنا بلا مأوى وصديق له. يمكنني الاعتناء بك حتى تتحسن سيدي).

سأله (ثائر) بوهن:

- أبكم؟ من أنت؟

كتب: (عاصم سيدي، أجل، أبكم) وابتسم بود.

ساعده ليجلس على السرير، ناوله بعض السكر والماء، ما إن خلد (ثائر) للنوم، حتى افترش الأريكة الصغيرة بالغرفة ونام هو الآخر....

بالصباح، اقترب (عاصم) منه، يهمس بأحرف غير مفهومة، نفض (ثائر) النوم عنه بصعوبة، قارئًا ما كُتب: (هناك زائر. وسأغادر قليلًا سيدي، عودتي قريبة لا تقلق). أومأ (ثائر) فقط.

غادر (عاصم) سامحًا للضيف بالولوج، تقدم السيد (عمران) صديق والده المقرب من (ثائر)، عرفه كهلًا فاقدًا للبصر، لكنه اليوم مبصر، تعجب (ثائر) فأجاب أسئلته العم (عمران):

- سافرت يا بني لإجراء العملية، منحة بدولة أجنبية حصل

عليها ابني لي، لشد ما أحزن عندما أتذكر وفاة والدك أثناء تلك العملية!

انهار بعد كلماته الأخيرة، دفن وجهه بين يديه مصدرًا نحيبًا قويًا؛ (ثائر) ردد الكلمات المعتادة لتهدئة أثر مصابه، وكأنه صديق للعائلة لا قرابة بينه وبين الفقيد.

استمر حديث الرجل عن والده، كم كان عظيمًا بعينه! ذكرياتهما سويًا لا تنتهي؛ بينما (ثائر) تثيره الرتابة والغضب أحيانًا.

عقب رحيله هاتفه (صالح)، تهرب من مقابلتهما كي لا يدركا إقباله على الانتحار، ثم خلد للنوم ثانية.

جاء (عاصم) ومعه الكثير من الأطعمة، استخدم أدوات الطهي الرديئة لإعداد الغذاء، مساعدته لثائر جعلته يشعر بشيء من الدفء، يشبه دفء الصداقة، وربما العائلة!

في المساء، تقلب بسريره كثيرًا، يكاد الإرهاق يقتله، لكنه تركه حتى أصبح حاجزًا بينه والنوم. أغمض عينه قسرًا، جعل رأسه بين ذراعيه علَّ الألم يذهب. تناهت لمسامعه أصوات تنادي عليه، تتداخل، تزداد، الصراخ أيضًا يتداخل، سمع صوتها، (بارديس)، صوتها الهادئ ينادي عليه: «ثائر، أين أنت؟ ثائر...»

ثم تكرر اسمه كثيرًا، الأصوات جميعًا توقفت إلاها، استمر صوتها واسمه حتى انقلب لصرخة كبيرة آلمت رأسه؛ فتح عينه فزعًا، قلبه ينتفض، أنفاسه تزداد، حلل الصوت جيدًا، لقد تسلل لأذنه من داخل رأسه نفسه، تساءل كيف؟ ولا إجابة يعرفها...

لفَّ وجهه المواجه للحائط للجهة الأخرى، متفقدًا الأمور حوله؛ وجده أمامه مباشرة، ينظر إليه، يهم بإيقاظه ربما؛ انتفض واضعًا يده على قلبه، أخذ شهيقًا كبيرًا ثم قال: «أدر المصباح لأستطيع قراءة ما كتبت».

فعل ما أمر، ثم قرأ (ثائر): (سأذهب للاستعداد لصلاة الفجر، لدى قريب لي مسجد بعيد وأود اللحاق به).

قطب حاجبيه متعجبًا، قال بصوت خفيض:

- حسنًا، غريب قليلًا، لكن لا بأس. والمرة القادمة أصدر صوتًا قبل وقوفك جانبي، أو أشعل الضوء على الأقل.

ضحك حين تبين خوفه، ثم غادر...



ما بين تقلب وغفو وصحو، بقي (ثائر) في فراشه يفكر في أشياء عديدة، ربما في كل شيء.

لم تقتحم الغرفة الصغيرة الشمسُ بنورها فقط، بل ازدانت حرارتها لتزعج كل محتاج للراحة؛ تحرك أخيرًا للتأكد من غلق الأبواب والنوافذ، وحينما وصل للباب رآه عائدًا بابتسامة باردة، بيده طعام إفطار.

بدا أمامه للمرة الأولى بصورة أوضح، يرتدي ملابس بسيطة مليئة بالغبار، قميصًا أزرق وبنطالًا أسود من القماش، يسير بتؤدة وثقة كأنما يدرك تحركات الجميع ولا يحتاج للنظر لغير طريقه؛ وأرجع (ثائر) هذا لطول فقده وتكيفه.

حينما أصبح أمامه هرعت يد (ثائر) إلى الطعام ليأخذه منه، فشعوره بالذنب والاتكال يجبرانه أن يقدم كل ما يقوى عليه لخدمة هذا الغريب، والذي يعتبر -تقريبًا- مصدر دخله الحالي.

تناولا الطعام بين نظرات متبادلة؛ كلاهما يشعر بالحرج من الآخر. لم يستطع (ثائر) تناول الكثير كعادته، فقد قلص الفقر حجم معدته وحاجاتها اليومية، ورزقه القناعة بفتات الأطعمة.

حاول خلق حديث مع (عاصم)، لكنه تراجع فور رؤيته منهمكًا بكتابة شيءٍ ما بتركيز شديد.

ندبة جديدة بيده شغلت عقله لساعات، عاد لفراشه يتأملها، هل هناك ما يستحق؟! بل هل هناك ما يستحق بقاءه؟ أسئلة وحوارات تدور داخل عقله، حتى أغلقت عينه، ظل يحارب النوم ويحارب الصحو، يحاول تذكر وجهها، يحاول تذكر الكثير من الوجوه، لاح لون عسلي مضيء أمام عينه فجأة، ثم ابتعد ليبدو كبؤبؤ عين أحدهم، ثم ظهر الوجه كاملًا، وجه طفل ممتلئ؛ فتح عينه فزعًا، ارتفع صوت أنفاسه، بات يخاف غلق عينه حتى لا تصيبه الهلاوس، لقد جعلته يرتعب من الأطفال، ممن سيخاف إن أغلقت ثانية؟!

بدل (عاصم) ملابسه بملابس مشابهة ونظيفة، سأله (ثائر):

- ماذا تعمل؟!

ابتسم كعادته، حرك يده كمن يظهر عضلاته ثم رحل، مشيرًا أنه ذاهب لهذا الشيء الذي لم يدركه (ثائر). فقد فهم أنه يريد شرح عمله، بيد أنه لم يع ما يقصد!

قرر ترتيب الغرفة، وتراجع في قراره بعد ثوان كسلًا، تحرك تجاه الأريكة غير المريحة، ثم جلس عليها متناسيًا نيته، يده سقطت على شيء ورقي، إنها المفكرة الخاصة ب(عاصم)، قلق كثيرًا؛ كيف سيتمكن الشاب من التواصل مع غيره؟! لكن رغبة بداخله حاربت

مشاعره تلك، ابتهج أنه سيرضي فضوله، قلب الصفحات سريعًا حتى وصل لورقة بها ثنية صغيرة أعلاها، وبدأ بالقراءة:

(اليوم التاسع من الشهر، جنازة جديدة مميزة، فتاة عشرينية لم يكن لها أمل بالحياة، الملابس السوداء حولها، البكاء، العوينات التي تخفي الأعين الحزينة والمنافقة والمجاملة، القليل ممن أرادوا كسب الثواب، والذين رحلوا عقب دفنها مباشرة، أقترب لأصبح أمامها، أحدق بمكان رأسها، أحدق حتى تتلألأ الدموع بعيني ولا أعرف السبب، أنا لا أعرفها. أفقد الرؤية لوهلة فأمسح عيني بسرعة وأفتحها... ظلام، شيء أبيض يحيطني، قماش أبيض في فمي! صرت أنا هي، أنا (مريم)، هل مت؟! أسمعهم؟ عددهم قليل، أنا خائفة.

إنني أتذكر الكثير من الأشياء، الكثير من الأخطاء، أذكر هذا اليوم...

لا ينقضي يومي دون هذا الضحك الكثير، الابتسامة، الحزن، اليأس والبكاء الذي يبلل وجنتي حين نومي.

أشعر أن روحي تنقبض، تحاول الفرار، هناك من يمنعها. أخاف، أخاف الجميع؛ كأن الجميع يترصد بي...

أخاف السير في الشوارع كأنهم يراقبونني حتى ولو بنظرة عابرة، حتى لو لا نظرة! أشعر بالرعب يحطمني، أخاف. لا أعرف ما الذي يصيبني؟ أظن أحيانًا أن الموت سيريحني من هذه الأفكار،

لكن هيهات! ذنوبي تقف حائلًا أمام هذه الراحة التي أحلم بها، الذنوب التي أظن أنهم يرونها بعيني، لا أعرف ما الذي يحدث؟ لا أعرف...

تغمض عينها فترى هذه الوجوه تقترب منها، تحاول الهرب لكن لا لم تكن هذه هي الخطة، هناك تلك السكاكين التي تدفن داخل قلبها فينقبض جسدها متألمًا، الصراخ يملأ عقلها فيرتجف له جسدها.

صوت طرقات على الباب. هل أتوا؟!

(نعم). يتردد صوت أفكارها ثانية.

ما الذي أفعله؟ هل صراخهم عليّ هو السبب؟ هل تركه لي ومغادرتي بشرخ لا يندمل؟!

هل انعزالي؟! صمتي وخوفي ممن آذوني قبلًا؟!

يا الله ساعدني! كيف أجرؤ أن أتفوه بلفظك وأنا في هذا الحالة؟ كأن اسمك لا يخرج من فمي، نعم إن الموقف يمنعني، لقد حسمت أمري وأفسدت كل شيء.

تمتمت بتلك الكلمات التي استغرقت زمنًا حتى ثبتت بعقلها. الصراع الحالي ليس بين عقلها وقلبها، بل عقلها وذاته، أتتوب وقد بدأت هذه الفعلة الساذجة؟! أم أنه لا رجعة؟

لا تستطيع التوقف عن التلفظ بالحروف تلك، تفرك يديها بعصبية علَّها تخفف الرعب والرجفة لكن لا فرق، كأنما تضغط بهما على أعصابها فتثور أكثر.

والدتها المسكينة تنادي دون إجابة، بل إن الإجابة تحضر ذهن ابنتها: «اتركيني الآن، بل سأترككم، سأبعدكم عني، سأبتعد عنكم جميعًا»

عقلها لا ينفك عن وساوسه حتى فقد القدرة على التفكير كليًّة. احتضنت نفسها بيدها متحركة للأمام والخلف بتوتر، قلبها يناضل داخل صدرها، رئتاها تحاربان الهواء الذي يأبى البقاء داخلها.

أخيرًا فتحت عينها، جالسة هي وسط هذه الدائرة المليئة بالطلاسم والخطوط، إنهم حولها، حسم الأمر، لقد هربت من أذى البشر وخوفها إلى خوف غامض مخيف، لا سبيل للتراجع، فقط الرعب، الطاعة، الأسر في عالم الوهم، بل في عالمهم. لقد تركت عالم البشر لوهنها وضعفها تجاه مواجهتهم. مُواجِهةً سكان عالمها الجديد فقدت الوعي، لا بد أنه لن يعود أبدًا...)

طرق رقيق على الباب الخشبي لمنزل (ثائر) أخرجه من القصة، انشغل عقله بها، هل هكذا ماتت؟!

صديقاه (صالح) و(فادي) قدما لزيارته ومساندته.

سألاه أن يحضرا له طعامًا؛ فهما الأعلم بحالته، لكنه فاجأهما بصديقه الغريب.

قال (صالح) بجديّة:

- طالما أنك استعدت وعيك، عليك أيضًا العودة للبحث عن مصدر رزق، جرب أن تتحدث مع مدير المطعم، ربما يساعدك ويدعمك لإنهاء دراستك

- لا ترهق نفسك، هذا أمر محال! الرجل يعرف أنني فشلت بالعمل ولن يعيدني.

قال ثائر.

قال (فادي) محاولًا تغيير الأجواء الحزينة وجذبهم للراحة أكثر: «يمكنك التجربة، انظر إليّ، جربت كثيرًا وبالنهاية ربحت عملًا قويًا، كذلك صالح؛ ويمكنك العمل بالراديو معه، آن ميقات تحقيق الحلم»

هبطت أذرع (ثائر) وكأن ثقلًا فوقها، وهبط جفن عينه، كذلك البؤبؤ، وقال بصوت هادئ:

- الأيام لونها معتم، هل تشعر أن للأيام والأشياء ألوانًا وملامح أخرى غير ما نعرفه؟

رد سريعًا:

- المئات، لا بل الملايين، بقدر معرفة البنات بتدرجات الألوان الغريبة أيضًا تخيل؟

ضحك و(صالح) أيضًا؛ بينما (ثائر) كان قد فقد خيط الحديث معهما، وتعلق عقله بأشياء أخرى كثيرة.

طرقات بسيطة اخترقت ضحكاتهما وشروده، عقبها انضمام (عمران) للمجلس؛ ومحاولاته التخفيف عن الشاب الفاقد عقلَه.

هموا جميعًا بالرحيل بناءً على طلبه؛ فقد ادعى النعاس، احتضنه صديقاه طويلًا، وربت الشيخ على كتفه قائلًا: «إن شباب هذه الأيام حمقى، دائمًا أمامهم الحقيقة، لكنهم يتغافلون عنها عنوة» ثم رحلوا، وتركوه مع الذكريات التي اشتعلت برأسه إثر أحاديثهم.

الرابع عشر من يناير

سحب ثائر نفسًا طويلًا متأملًا المقابر أمامه، تقدم بتؤدة بخطى متراجعة، يود لو يعود، لو لا يرى هذا المكان ثانية.

لمح صديقه (صالح) يحدث أخته (حنان) أمام باب البيت الصغير.

لم تختلف أخته عنه كثيرًا، بشرتها قمحية، عينها عسلية واسعة، أنف وفم دقيقان، ترتدي عباءة منزلية بسيطة مطرزة، ووشاحًا أسود اللون ترتديه غالبًا أو شبيهه الأبيض.

اقترب محاولًا تبين ما يقال؛ يدرك جيّدًا أن الأحاديث بخصوصه دائمًا مهينة، رغم حبِّ أخته له، لا يمكنها التخلص من بعض الأفكار التي زرعت برأسها.

انتبه له (صالح) فابتسم مرتبكًا، حرك الظرف بيده بعصبية كأنَّما يود أن يخفي شيئًا، ثم اقترب منه معانقًا.

همس له:

- لم أعلم أن ستأتي فجئت لأطلب بعض النقود لك

رد (ثائر) محدقًا في أخته بشك وخيبة أمل وبصوت مسموع:

- ظننتك نسيت فجئت لأطلب بنفسي.

ابتسم صديقه مقدمًا له مظروف النقود مغادرًا المكان، بعد أن ودعه وتأكد أنه لن يفتعل مشاكل.

تساءل (ثائر) عن سبب حديثه مع أخته؛ فأخبرته أن والدها ترك النقود وذهب لأمر عاجل، سألها عن كنهه، فنظرت وراءه قائلة بصوت خافت: «لا أعرف، يمكنك أن تسأله»، ثم هربت للداخل.

دنا الوالد منه بشموخ؛ والتف (ثائر) بنظرات متنمرة ساخطة، رفع الشيخ وجهه متعاليًا وقال:

- هل جئت لأنقدك مصروفك الشهري أيها الطفل؟

رد بتحدٍ:

- سأعمل، سأعيد إليك كل ما دفعته بعمرك

- ألم تكتف بكل الوعود التي حنثتها؟!

لمع ضوء بعين (ثائر)، ضوء الحرب الثائرة داخله، تمنى لو يصرخ، لو يطلق كل ما بقلبه المسجور، لو أن بيده أن يخبره أن آلامه وضعفه حتى فقره لم يكونوا جراء تواضع الأموال، بل لشح المشاعر، لهذا الألم الذي يعتصر كل خلية داخله كلما رآه، لهذا الحزن الذي يشعره أنه دائمًا لا يصلح أن يكون رجلًا وقورًا، فقط

لأنه ليس كما توجب أن يصير! أراد وتمنى، بيد أن كل ما خرج من أعاصير جسده دمعة تترقرق، ثم تهرب لموطنها -عزةً- ثانية.

رمقه والده نظرة احتقار ثم غادره، وقبل أن يصل للباب هتف (ثائر):

- أنت لم تر أي شيء بعد، لا ألغو في قولي.

أمسك والده مقبض الباب الحديدي بغير اكتراث مهمهمًا:

- لست بذي طعم ولا بذي نزل أيها الغبي، ليتك تدرك كل شيء

ثم دخل وأغلق الباب. انصرف الابن منفعلًا يحارب نفسه والهواء والعالم، يقبض بيد على المظروف وبالأخرى على ذاتها، كأنه يواكب دقات قلبه المنفعلة فيقبض ويبسط، كذلك يسحب الهواء ويطرده بعنف، سيره كالركض، وركضه كركض العاجز.

استوقفه صوت كهل كفيف، العم (عمران) يطلب أن يوصله لمنزل والده، استجمع أنفاسه ثانية ليوصله، ربت الرجل على كتفه ثم قال:«إن شباب هذه الأيام حمقى، دائمًا أمامهم الحقيقة، لكنهم يتغافلون عنها عنوة» ودخل.

تمتم (ثائر): «ألا إن دنياكم وحقيقتها ملعونة وملعون ما فيها!»

رن هاتفه البسيط، المتصل مجهول؛ أجاب بتوجس فسمع صوتها الهادئ: «هل يمكننا أن نلتقي؟»



خيال مظلم تحرك أمامه قطع تفكيره بتوقف صاحبه أمامه، نظر لعينه متسائلًا، لم يعِ بدايةً لم نظراته هكذا، لكنه أدرك أن مفكرته مفتوحة بجانبه؛ فزِع (ثائر) معتذرًا، شعر بالحرارة تلهب وجهه خجلًا.

سحب (عاصم) المفكرة متفحصًا وناقلًا بصره بينها وبين الشخص المحرج أمامه، ظنه (ثائر) سيكتب شيئًا، ربما يوبخه، ربما يأخذها ويهرب عقابًا، لا يعرف، الأفكار تمور في ذهنه والتوتر يزداد...

ابتسم (عاصم) فجأة، ثم قدم إليه المفكرة مشيرًا إلى المكان الذي سيكمل منه قصته، ومتجهًا للأطعمة التي أحضرها ليعدها.

(إن الله أكبر من أن يأخذ من رجل شيئًا ولا يعوضه؛ الجود الإلهي، أعوّضَ الله (عاصم) فقدَه بهبة الشعور بما يجول ببال الآخرين؟ وقدرته على إيصال ما يقول دون كلام؟ ربما! ولكن، هل بهذا القدر؟ لهذه الدقة؟!) هذا ما راود عقل (ثائر).

دنا من المفكرة، متسائلًا أمسكها: «من هذه الفتاة؟ هل تؤلف القصص؟» كلماته المهتزة أعلمت (عاصم) أن ابتسامته لم تكن كافية لتوقف خجله، فابتسم ابتسامة أكبر مشيرًا إلى المفكرة؛ فهم (ثائر) مقصده: (اقرأ؛ وستعرف كل شيء).

(يوم من الإغماء، يوم من الكوابيس، الأضغاث ربما، أو رسائل التهديد، لا تعرف، حتى أنها لا تذكرهم الآن، تذكر والدها وسنده

لها طوال سنوات، تذكر تركه لها منذ ما يقارب العقد؛ تذكر مرض والدتها النائمة جوارها، وتذكر عينها الحانية.

فتحت عينها، ألم شديد برأسها كأنه يجتذبه للأسفل، كأنَّ الجاذبية تزداد به، استندت بيدها الواهنة على الكومود بجانب السرير، والتي لم تتمكن من تحريكها جيّدًا؛ فلا زالت لم تستجمع قواها بعد، ولم تكتسب العضلات الإفاقة التي تمكنها من الحركة. عينها نصف المفتوحة تراقب وتدعو، ربما تدعو أن يسامحها اللّٰه.

فتحت الباب صديقتها (علياء) رفيقتها بفريق الموسيقا بالمسرح القومي، فتاة جميلة، توحي بالغموض والأمل، ابتسامتها لا تفارقها، يدها المشلولة كانت المحفز الأكبر لمريم لاجتهادها بالعزف؛ فبينما صاحبة اليد الواحدة بهذا التفاؤل وهذه القوة، أنى لها ألا تكون؟!

دنت من مجلسها حتى أمسكت يدها الضعيفة وجلست على طرف السرير، قال بصوت خفيض: «ستفرح والدتك عندما تفيق، ألن نكمل تدريباتنا؟ يمكننا تأجيل الأمر إن أردت»

همهمت: «لا، سأنهض الآن»

شعرت بالدماء تتحرك، القلب يزداد نبضه حتى اعتدل، التنفس لم يعد شاقًا، لا يؤلمها رأسها، بسهولة تحركت وخرجتا من الغرفة. جلستا أمام بيانو واحد، (مريم) على اليمين، شرعت تعزف مقطوعة هادئة، (for elise) لبيتهوفن، موسيقا الصندوق الموسيقي الذي أهدي إليها من ذاك الشخص آنفًا.

استمرت حركة يدها بهدوء حتى بدأت تردد: «سيندم الجميع، سيندمون، سأثبت نجاحي» ازداد تردد كلماتها وازدادت سرعة العزف، حاولت (علياء) تهدئتها، لكنها لم تستجب، بل حولت اللحن تمامًا لمعزوفة الحرب العالمية الثانية، أصعب كثيرًا، ورغم تركيزها بالأولى إلا أنها أبدعت حين تركت الموسيقا تحكي غضبها...

بعد عشرين دقيقة هدأت، كانت تنتفض، يصعد صدرها ويهبط كعداء منتصر، رمقت صديقتها المصدومة نظرة مخيفة ثم سألتها رأيها، أجابت الأخرى: «لدي فكرة»

إجابتها غير المتوقعة هدأت من روع الملتاعة أمامها، فأردفت: «ماذا لو أننا صنعنا يومًا عالميًا للشر؟! ننتقم من الجميع؟» ثم ضحكت.

أجابت (مريم) كزفير بعد شهيق مؤلم: «ماذا لو صنعنا يومًا يدحض فيه الشر، ليجلب الناس الشر كشيء مادي كل عام، يحرقونه، يقتلونه» صمتت قليلًا ثم أكملت نافية: «ولكن الذي يموت لا يحتاج القتل مرارًا»

ابتسمت الصديقة قائلة: «صحيح.»

التفت لتقرأ كتابًا عن الموسيقا ومعانيها الروحية، والذي شاركته فيما بعد (مريم)، كانت (مريم) منبهرة بقوة (علياء)، أكثر ربما من انبهارها بقوة بيتهوفن الأصم!

فركت رأسها قليلًا متذكرة ما حدث، التحضيرات الحمقاء، اتفاقها مع صديقتها، والدتها المريضة. قفزت فجأة ثم ركضت إلى

الغرفة، استيقظت المرأة فزعة، احتضنت ابنتها وبقيتا على هذا الحال ساعات، بكت (مريم) كثيرًا راجية السماء؛ والوالدة لا تفهم لمَ السماح؟

رمقتها (علياء) نظرة كليمة ثم غادرت.

باليوم التالي، جلس جميع أقربائها بالمسرح، الوالدة، ابن العم والحبيب السابق، وباقي الأفراد، والكثير ممن كرهتهم آنفًا...

نجح العرض نجاحًا منقطع النظير، احتضنت الجميع ثم قررت الاحتفال مع صديقتها، ضرب رأسها الألم، قالت (علياء):

- والدتك تتحسن، تعرفين هذا، ستظهر نتيجة التحاليل اليوم وستعرفين أنها بصحة أفضل منا.

- إن شاء الله.

زفرت (علياء) منزعجة ثم أكملت:

- لقد شاء، ولقد شاءوا، وأنت رأيت هذا، عليك الآن دفع الدين.

توترت إثر خطئها، قالت بخجل وخوف ناظرة لعينها، ومستجدية عطفها وتراجعها عن الاتفاق:

- غدًا؟ أليس كذلك؟ أعني ليس اليوم.

ردت (علياء) بثبات:

- ستتخلصين من كل الآلام، لقد قتلتِ الأحزان اليوم، اليوم فقط.

لم تنم (مريم) طوال الليل؛ شعرت الآلام التي قاومتها، المحاولات البائسة للهرب من الحياة، قلبها يضرب كأنما يصرخ ويطلب منها الهرب، إلى أين؟! ستهرب من قدرها لقدرها!

لم تنم عينها ولكن، هدأت روحها الحزينة، هدأت للأبد...

(صباح التاسع من الشهر، الصراخ يملأ المنزل، نوبة قلبية أودت بحياة الشابة)

قلب الورقة منتظرًا التكملة، لا تكملة! ماذا حدث؟ ما الاتفاق؟ من الفتاة؟ لا يفهم شيئًا، الأسئلة كثيرة ومتداخلة.

انتفض إثر اليد التي حطت على كتفه، يمد له (عاصم) يده الأخرى ببعض الطعام الذي برد قليلًا. حاول تناول القليل، عينه سلطت على الفضاء، ظنه (عاصم) يريد عصا والده الخشبية فأحضرها له، درأها بعيدًا غاضبًا؛ فخجل (عاصم)، اعتذر له محاولًا تهدئة نفسه، رتب كلماته قدر الإمكان متسائلًا:

- من مريم؟! كيف تعرفها؟! ولماذا القصة منقوصة؟

أمسك بمفكرته ثم كتب:

- لقد عرفت عنها كل ما يجب عليك معرفته.

- ماذا تعني؟

هز رأسه مستنكرًا، قال ثائر:

- فهمت.

أشار رفيقه للطعام، معدته تؤلمه، الآن فقط شعر بها، ربما هي مهذبة للدرجة التي تمنعها من البوح إلا بالوقت الأنسب. هم بتناول طعامه والأفكار لا تهدأ برأسه حتى صار لكل فكرة ألم خاص يتداخل مع أخيه وينافسه على أذى باقي الجسد...

الخامس عشر من يناير...

«شكرًا لأنك أتيت» قالتها (بارديس).

رد (ثائر) بتوتر وسعادة ولهفة:

- «بل أنا أشكرك، ظننتك لن تتحدثي ثانية»

ضحكت بهدوء متأملة وجهه، ثم بدأت تجول بناظريها للمكان حولها، كل منشغل بطعامه وهمومه، ضحكاته وأصدقائه، الشمس غير قوية بالخارج بعد، بيد أن ذلك لا يؤثر أبدًا على المطعم المكيف، الطعام أمامها يبدو شهيًا، بالمرة السابقة لم يبد على (ثائر) قدرته على شراء هذه الأطعمة؛ لقد منحها شيئًا كبيرًا. نظرت لعينه ثم أغمضت عينها متأثرة بسحر الموسيقا الهادئة.

أبصرت متسائلة:

- هل أعجبتك الموسيقا؟

لم يسمعها، كان يتأملها، فستانها الطويل الوردي المليء بالزهور ووشاحها الأبيض، ابتسامتها الهادئة المهتزة قليلًا، صوتها. انتظارها لرده جعلها تخجل، وكأن أذنه قد تعطلت قليلًا فاستوعب ما قالت بعد ثوان كثيرة.

أجاب فور انتباهه ضاحكًا:

- نعم، نعم أحب ما أسمع.

فهمت مقصده فقالت محاولة الخروج من مأزق كلماته:

- أحب الموسيقا جدًّا، أعشقها.

- هل تستطيعين العزف؟

ابتسمت: «لا، ليت شعري! لكني أسعد بها، ألا تظن أن القدرة على العزف تجعلك سعيدًا؟ حتى أن الموسيقا تصدر بالنهاية من داخلك» تهدأ ابتسامتها ويتكدر وجهها قليلًا: «هي صوت كسر أضلعك، صوت الحزن الذي يضخه قلبك وحريق أنسجتك به، يا لها من موسيقا!»

أمسكت رأسها متألمة، مقطبة حاجبيها ومغمضة عينها؛ مد يده ناحيتها بسرعة، ثم أرجعها قائلًا:

- أنت بخير؟! أأحضر لك مسكنًا؟

فتحت عينها لتجيبه وتطمئنه؛ لكنه نادى العامل بالمكان وطلب منه إحضار الدواء. شكرته مبتسمة بصعوبة.

- صدقني الأمر لم يستدع، هل تعرف لم طلبت مقابلتك؟

ابتسم لتكمل:

- أنت الغريب الوحيد بعد طبيبي الذي واتتني الشجاعة للحديث معه بطلاقة

اتسعت ابتسامته وشعر بزهو؛ إنه وللمرة الأول شخص مهم بحياة أحدهم. قال:

- صدقيني لن يكون بالعالم من هو أسعد مني لو وجهت له هذه الكلمات

- لا تفرط بالسعادة؛ زائلة هي. اعذرني، لقد أفرطت بها منذ دقائق فأهلكني رأسي وأصواته.

تعجب:

- أصواته؟!

ضحكت ضحكة مهترئة:

- أظن أن هناك من يعيش داخل عقلي ويعبث به.

زاد تعجبه فضحكت أكثر، أو حاولت، فتحول تعجبه لضحك مستجيبًا لضحكها. انتهت نوبة الضحك وحل الجد محلها، قال:

- أراك حزينة رغم أنني أظنك مترفة!

نظرت للأرض وابتلعت ريقها، أجابت بثقل:

- لو كان الترف نقودًا لما ضحك فقير ولا حزن غني.

- هل تظنين ضحك الفقراء ضحكًا؟!

- بل أظن قلوبهم أصدق.

- ومن كذب عليك؟!

ضحكت ثانية مثل سابقتها:

- أعني هناك من يؤلموننا دائمًا، قريبون ولكن قربهم ألم.

التفت كلماتها حول جِيده، حتى أنه حاول بلع ريقه ولم ينجح.

أردفت: «وددت أن أناجيك ببعض همومي، لكن أظن من الأفضل أن يؤجل هذا الأمر»، ابتسمت منكسرة متفهمة أثر جروحها على جروحه.

رد: «ربما حزنت لشيء في نفسي، لكن لا أحبذ ولا أحبُّ أن أرى حزنك، لا تكتني هذا الشيء ربما يخنقك؛ الحزن يخنق أحيانًا»، ابتلع ريقه بصعوبة عقب كلماته.

نظرت إليه بعين متعلقة:

- هل تريد أن تسمع فضولًا، أم شغفًا لتطبيق نصائحك؟

لم يكن هذا ما بخاطرها، لكنه ما صدر.

- بل أريدك أن تنفضيه عنك، أن تضحكي بلا ألم، بلا تفكير، لا أعرفك ربما، أو لا أعرفك جيّدًا، لكن قدر معرفتي يؤول بي

ألا أحتمل حزنك هذا.

قطعت كلماته الأخيرة أفكاره؛ عرف أن رد فعلها لن يكون جيّدًا. قالت بتعجب:

- شكرًا، أنا أيضًا لا أحب رؤية الحزن بعين غيري.

تبينت حرجه فأردفت سريعًا:

- هل تحب الفوتتشيني؟ يقدمونها هنا رائعة.

انفجر ضاحكًا، يحاول الحديث لكن الضحك يفسد مخارجه. تساءلت ضاحكة:

- ماذا هناك؟

قال:

- لقد أضحكتني الكلمة، دائمًا تضحكني.

- حقًا؟! تضحك على أشياء غريبة.

- أتفق معك.

استمرا بالضحك حتى نهضت فجأة فوقف أمامها:

- لماذا وقفتِ؟!

- سامحني فلدي موعد الآن، لن أنسى ما فعلته لأجلي، كن بخير

ثم رحلت، أو هربت كما ارتأى هو كوصف أدق.

عاد للكرسي، ينظر لمجلسها الهادئ، بل تخيله هادئًا مثلها، نقد العامل وحمل سترته ليذهب، سقطت ملعقة بالخطأ فتركها على الطاولة، وحين عودته لحملها ثانية، ورقة بيضاء برزت أسفلها، لم تكن موجودة قبلًا.

فتحها ناظرًا للأعلى والأسفل مقدمًا. إنها رسالة من (بارديس)!



هذا المساء، غادر (عاصم) المكان مبكرًا تاركًا الأفكار تمور بعقل (ثائر).

التجأ لفراشه الخشن ثم تكوم به، شيء بالمكان يؤرقه، لم تكن الذكريات، بل شعور بعدم الراحة، شعور أن هناك من يراقبونه!

استدار للراديو، ضغط الزر أعلاه فنسمت آيات القرآن لأذنه مهدئة، أو ربما هذا ما تمنى...

تكوم ثانية حالمًا بخيالات كثيرة، ضحكات أخته، عناق والده، ضحكات بارديس، صوتها. لكن الجميل لم يكن ليكتمل لشخص تعس مثله، انقلب الخيال بصورة سيئة، تغيرت الأصوات لكثيرين يتحدثون، الصوت من داخل رأسه، الكلمات غير مفهومة، هناك الألم الممزوج بها، تعلو... تعلو وتتحول صراخًا، يعلم أنها مجرد هلاوس من داخل رأسه، ستذهب حالما يفتح عينه، مهلًا! لا يمكنه فتح عينه، جسده يؤلمه، هو سجين الهلاوس الآن حسب اعتقاده، الصراخ يزداد، الألم يزداد، لا يجد مفرًا للهرب منهم، يفكر، أفكاره مشوشة... دقائق مرت كساعات من الألم والشتات، حتى اهتدى لتذكر القرآن، حري به أن يكون جانبه، حرك يده صوب جهاز الراديو فأمسكه، ألصقه بأذنه محاربًا الأصوات تلك، قل الصراخ، هدأ، الأصوات تخفت، هناك أطفال! صوت أطفال يضحكون، الصوت يبشّره ويزيل الألم،

ينخفض صوتهم أيضًا، هناك صوت أكثر راحة، القرآن، الهدوء والقرآن فقط يملآن رأسه.

فتح عينه أخيرًا كالمستيقظ، فرحًا بهروبه وانتصاره، بيد أنه خاف إثر ما وجد؛ جهاز الراديو لم يتحرك، يده لم تتحرك! لم يستطع فهم ما حدث، علا صدره وهبط مصدرًا أنفاسًا صاخبة بالنسبة لهدوء المكان. ظل يراقب الراديو ويستمع لما يرسله سويعات قليلة حتى غط في نوم عميق إرهاقًا.

استيقظ متأخرًا، ربما قبيل الظهر، اعتقد أن (عاصم) قد عاد صباحًا وغادر، تفحص المكان باحثًا عن طعام تركه ربما، فلم يجد، لم يتأثر كثيرًا، لم يعتد تناول الأطعمة كل يوم، ربما الرفقة الجديدة أنسته.

فتح الباب منتظرًا قدومه، وشرع يتأمل المكان، مئات الموتى، ربما الآلاف، كم من رجل مات ونُسي هنا؟!

تأمل روتين حياته الجديد، كيف تأقلم عليه سريعًا؟ وكيف انصاع لكل شيء يحدث على عكس ماضيه الذي لا يتركه، لماذا لا يتركه ماضيه؟ أفكار وأحزان ومشاهد ناقصة تعذبه...

السادس عشر من يناير

وصلته رسالة من أخته (حنان)، مفادها أن هناك أمرًا جللًا عليه الوقوف بجانبها فيه. رغم تحفظه ونفوره من زيارة منزله، إلا أنه أحسَّ بناقوس خطر يحيط بأخته الصغيرة؛ فحمل حقيبته التي

تحتوي أشياء بلا قيمة، سوى المظروف الذي لم يقرأ بعد، وانطلق إلى منزلهم...

بالبيت، تعلقت نظرات (حنان) بالأرض، ساورت (ثائر) مئات الشكوك، إنه حتى لم يعرف إن كان الأمر يخصه أم يخصها أم يخص شخصًا آخر!

ترجلا لغرفتها، جلست على فراشها متحدثة بصوت خفيض:

- لقد تقدم رجل لخطبتي منذ أيام.

اتسعت أحداقه منفعلًا؛ لم يخبره أحد بهذا من قبل! بيد أنه هدأ وتغير تمامًا حين تبين عبراتها. أكملت مرددة نظرها بينه وبين الأرض:

- لم يعد ثانية، أجبرني أبي على مقابلته وأجبرني ألا أخبرك، لا أعرف السبب، كل ما يراه أن هذه مصلحتي.

وضع يده على رأسه حانيًا ومشفقًا، وقال:

- ليست المرة الأولى، كل مرة أجلس معكما كالغريب، أأجلب العار لكما؟

تحدثت بكلمات مختلطة مع الدموع والتنفس المضطرب:

- بل يخاف أن ترفض، كل مرة يحضر رجلًا محترمًا يذهب بعد أن يراني، وهذه المرة الرجل مخيف، مخيف جدًّا، وأبي أحضره كأنما يبيعني للبغيض ليخلص مني.

مسح عينها بهدوء قائلًا:

- لم يذهب كل محترم؟!

نظرت لعينه معاتبة:

- أنت خدعتني، قلت أنني جميلة.

سحبت نفسًا آخر من الألم وأكملت:

- لا أظنني هكذا، خدعتني أنت، سامحك الله!

شعر بألم شديد، الخطأ بتركها بجحيم الفقر هذا، أو الخطأ بعدم محاربته حتى آخر أنفاسه. احتضنها قائلاً:

- الناس لا يرونك جميلة، بل يرونك فقيرة، هذا ذنبي، سامحيني.

دفنت وجهها في كتفه باكية؛ ففتح حقيبته ليحضر بعض المحارم، رأى المظروف، تعجب كيف لم يقرأه؟! رفعت أخته وجهها ناظرة لعينه بشفقة قائلة:

- ثائر، لدي سر كبير.

نظر فقط ولم يجب، فأردفت:

- أحدهم يحبني ويريد خطبتي، وأظنني مثله.

امتقع وجهه؛ من الذي قد يحب فتاة فقيرة؟ ربما شخص سيئ يريد استغلال براءتها. ظل محدقًا بتوجس فقالت بصوت متحشرج إثر البكاء:

- أنت تحبه، هو فقط خائف قليلًا وأنا أيضًا.

- هل يعرف والدُك؟

- بالطبع لا، لا تخبره أرجوك!

تمتم مهدهدًا إياها:

- يظن أنه يعلم كل شيء عنك، لو علم والدنا ما يكمن بسرائرنا لظن أنه أنجب أناسًا آخرين.

ثم ابتسم محاولًا كسب ثقتها، تساءل مدعيًا عدم الضيق:

- من هو؟ وكيف عرفته؟

ابتلعت ريقها خوفًا من عودة والدهما، رمقت باب غرفتها نظرة سريعة ثم أعادته لعين (ثائر)، قالت: «سأخبرك كل شيء...»

أصبحت الشمس حارقة بشكل لا يطاق بالنسبة لرجل يقف أمامها ساعة كاملة، تضرب الشمس المقابر كأنها عقاب لأحد قاطنيها، وكأنَّ العقاب له وحده، وكأنَّ الأنفاس نفسها سموم لروحه تفقده طاقته.

دلف إلى البيت متململًا، فتح حقيبته الكبيرة يقلب ما بها، منذ وفاة والده انتقل للمنزل وأحضر كل حاجياته، بيد أنه لم يفرغ ما بها ويرتبه؛ ربما يظن أنه ليس نزله الأبدي، وربما يشعر أنه ليس منزله بالأساس!

قلب كثيرًا حتى اصطدمت يده بصندوق، كان ينوي شيئًا ما، لكنه نساه حين عثر على الصندوق، فتحه وإذا ببعض الأوراق والمظروفات.

أمسك بمظروف مدون عليه: **(إلى ثائر... الثالث عشر من يناير)**

كانت رسالة (بارديس) الأولى له، قلبها بيده مبتسمًا، متناسيًا حرارة الجو، أيضًا لم يشعر بضيق الهواء من حوله، بل على العكس تنفسه صار هادئًا ودافئًا، جلس على الفراش شارعًا للخطاب، وبدأ القراءة بفمه، لكن أذنه تسمع صوتها، تسمعه بكل المشاعر التي حملتها كل كلمة، بكل أنين، بكل ضحكة، بكل دمعة، بكل أمل وكل يأس، كان دائمًا يسمعها...

(العزيز ثائر،

لم أخبرك من قبل أنني أحبُّ الكتابة، وأحبُّ خاصة كتابة الرسائل، وقد شعرت برغبة شديدة في الكتابة إليك، رغم أنني التقيتك يومًا واحدًا، إلا أنك أصبحت جزءًا من أفكاري، تشغل حيزًا كبيرًا، أكبر مما تخيل.

لقد حلمت بك، لذا طلبت ملاقاتك، أتمنى لو أخبرك الحلم، لكنك لا تعرفني بشكل جيّد. وفي رسالتي هذه قررت إخبارك...

عندما ولدت، لم يهتم لشأني أحد سوى والدي، قدم لي الأبوة كما لم يقدمها رجل، حتى ذلك اليوم البشع، مات والدي، لم تخفِ عني والدتي هذا الأمر، لم تخدعني بسفره أو أي كذبة

تقال للأطفال مثلي؛ هي لم تهتم بي قط، لم تتألم لي، أظن المرة الوحيدة التي تألمت لأجلي كانت حين ولادتي.

عندما توفي أبي، توقف العالم، توقف الزمن، مات الرجل الأربعيني وظلت الطفلة على قيد الحياة طفلة. ستشرق الشمس، سيتغير التاريخ، تتجدد الأحداث، وسأظل أنا في زمني المتوقف أتابع أزمان الآخرين.

لم تكتف والدتي بكسر قلبي الصغير، بل زاد الأمر سوءًا حينما وجدت نفسها مجبرة على الاعتناء بي، كانت مدللة، مدللة كثيرًا ودائمًا. تزوجت والدتي، رجل يشبه أبطال الشر بالأفلام، أجبرتني أن أناديه أبي، وكنت كثيرًا أصفه بالعم أو السيد، لا والد سوى أبي، هذا رجل شرير.

ولم أكن مخطئة قط بحدسي، مرَّ العام الأول بثقله كسيارة من ضحكاتهما وإهمالهما تدهسني، ثم انقلبت الأمور حينما ظهرت للرجل زوجة أخرى سابقة تحاول القصاص منه قانونًا، صار يضرب أمي ويضربني، لم أصرخ باسمها، صرخت باسم والدي، استغثت به في كل ليلة، أتمنى لو يسمعني، فيحميني، أو هذا ما أحببت أن أعتقد، ورده دائمًا حمل كلماته السابقة بصوته الدافئ: «الجأي لله حبيبتي، هو دائمًا بجانبك».

أقف أمام المرآة، أجدل شعري وأغمض عيني، أتخيل يده الكبيرة تربت على رأسي وتجدله، أبكي، أقول له: «هل رأيت يا أبي ماذا فعلوا بي؟ ألن تنقذني؟!» لكنه لم يفعل، أحيانًا كنت أغضب من تخاذله، كنت أستنكر رحيله، أستنكر عدم وجوده، وأكذب موته.

كبرت ببيت غني بسبب زوج والدتي والإرث الذي اختصته والدتي لنفسها فقط، لم تتركني كلماتهم السيئة جيئة وإيابًا، صفعاته وصفعاتها أيضًا، ربما تعلَّمَت منه، تغير غضبي وحزني وصمتي لانهيار داخلي، تخلف عنه غضب على ذاتي، حاولت الانتحار كثيرًا، وربما هذا جعل قلب والدتي يلين؛ بيد أن الرجل الذي تزوجها يتعامل كأنما اشترانا بأمواله الكثيرة.

منذ عام ونصف أصيبت والدتي بالشلل، لم أعرف السبب، لقد تحملت كثيرًا، هل هذا حزن مفاجئ أم تراكمات؟ لا أعرف ولم تعرف؛ لكن شيئًا بداخلي جعلني أعتني بها، شعرت بعجزها وتوسلها الدائم والذي لا أحتمله لغيري، ولو كان الشيطان!

عزف زوجها عن المساعدة إلا بقدر شحيح، لم يكترث، أراد الزواج بامرأة جديدة يغدقها بالأموال أولًا، ثم يستعبدها وكل من يقرب لها، وبعد إعلان خطوبته وتشفيه بأمي المريضة، ساءت حالة والدتي. حتى ذلك اليوم، منذ ما يقارب العام، خرج من المنزل ساخرًا ومهينًا لنا، ضرب أمي وضربني، ثم أعادوه الجيران جثة مشوهة تغرق بالدماء، صدمت والدتي وصرخت، لم أفهم لم حزنت عليه؟ وأنا نظراتي مصمتة، لا حزن لا فرح، لم أتعجب، ولم أتوقع، ربما هذه النهاية الطبيعية لمن مثله.

مرت الأيام وتوقعت أمي أن أتغير، للأفضل فأعتني بنفسي أيضًا، أو للأسوأ فأتركها للموت بلا رحمة؛ ولكن الوحيد الذي تغير هو فؤادها، لقد أحبتني، كانت تعتذر كلما أمسكت يدها، كلما ساعدتها بالحركة، بتناول الطعام، كل شيء...

شعور الذنب كان يجعل حالتها تسوء، خبرتها بمرة أنني لست حزينة، أنني لا زلت أنزف فقط إثر سنواتي الماضية، أن نبذ عروقي يحمل ألمًا لم يعد سببه موجودًا.

حينما رأت يدي طلبت أن أذهب للطبيب، وقد فعلت، أقصُّ له ما أشاء وأتناسى ما أريد، أثق به حينًا وأتجنب النظر لعينه أحيانًا...

أما عنك، لقد رأيتك بالأمس، ربما تشبه والدي، ليس بالملامح، أنت مختلف تمامًا عنه، لكن شيئًا طيبًا تحمله يشبهه، طلبت منك مقابلتك لشيء جلل؛ أود أن أتأكد هل أطمئن لك فأترك أحاديثي لوالدي بين يديك كأنه عاد للحياة؟ أم أتراجع وأخفي رسالتي بين مئات الرسائل له والتي لن يأتيني عليها رد.

سامحني لو أطلت، ولو تفوهت بما لا يهم، سامحني لو أنني أخطأت أيضًا. وشكرًا لك كثيرًا لو تحملت هذا الكم من اللاشيء.

سأنتظر ردك الذي يشبهه، وسأنتظر أن أرى ابتسامتك الحقيقية.

أطيب التحايا

صديقتك

بارديس)

طوى الورقة ثانية بعد أن ابتلت إثر دموعه المتساقطة، والتي يسعد لامتزاجها بدموعها كلما قرأ.

ضرب الجوع بطنه ثانية، مر الوقت ولم يشعر، اقترب العصر. استند على الباب منتظرًا عودة شريك السكن والطعام معه، للمرة الأولى شعر أنه يفتقد عودة أحدهم للمنزل، شعر بهذا القلق، وكان يسعد بشعور العائلة ذاك.

دقائق مرت من الملل والذكريات حتى لمح طيفين يقتربان، صديقيه (صالح) و(فادي)، تقدما سعيدين يحملان طعام الغذاء معهما.

تعجب ناظرًا للطعام متسائلًا:

- كيف علمتما بأمر جوعي؟

ضحك (صالح) قائلًا:

- آخر مرة أحضرت لك المال من والدك في الأول من الشهر، أعلم أن النقود انتهت معك» ثم تساءل بصوت خفيض مازحًا: «ألم تعثر على ثروته بعد.

ضحكوا ثم رتبوا للطعام، مع نظرات (ثائر) الزائغة للباب انتظارًا لصديقه... ضحكوا كثيرًا وأكثروا من المزاح، خاصة (فادي) صاحب النكات اللطيفة، والمغامرات المتهورة، خبرهم عن الفتاة التي تعرف عليها مؤخرًا، والتي يحسبها الفتاة رقم خمسة بعد المائة.

توقف الضحك فجأة لدقيقة عقب انتهاء المزاح، استعاد كل منهم جديته، تنحنح (صالح) قليلًا ثم قال بثقة:

- أظن أنه عليك البحث عن عمل يا ثائر؛ لا يليق بك البقاء جائعًا هكذا، وقد لا تعثر على أموال والدك الكثيرة.

زفر (ثائر) متململًا وقال:

- أنت تعرف أنني لا أصلح، ربما أحاول العودة إلى العمل وشرح ظروفي، لكن هذا غير مضمون.

- باللّه أي عمل منهم؟

انزعج (ثائر) وقطب حاجبيه، كما انخفض صوته محاولًا إنهاء الحديث أو تغيير وجهته:

- المقهى، المقابل للسكن الخاص بنا.

ضحك (فادي) مشاكسًا:

- هل تُعرِّفه بالسكن حقًا؟

تنحنح (صالح) ثانية ثم قال:

- حاول البحث عن عمل جاد، عمل تنجح به، أنت تحيا بالماضي أكثر من اللازم.

قبض (ثائر) على راحته، ثم وقف غاضبًا:

- أنت لا تعلم حجم الألم الذي أعانيه، كم عشت منه أنت لتنتقد غرقي بالماضي؟

بدا الغضب على (صالح) وهم ليرد، بيد أن (فادي) قاطعهما قائلًا بهدوء، في محاولة لتهدئة الأجواء:

- هو أيضًا عانى يا ثائر لا تغضب هكذا، نحن فقط نخاف عليك، لا تفجر ألمك وتضغط على ألم غيرك.

رد (ثائر) بانفعال أكبر:

- لو كان ألمًا لتألمت، إنما هو موت، موت بشع»، ثم سقط على مقعده يبكي بحرقة دافنًا وجهه بين راحتيه.

انهزم (صالح) أمام دموعه فاحتضنه، قال بهدوء:

- تعلم أنني لم أعنِ القسوة، أنا فقط خفت عليك. لا بأس يا صديقي، خذ الوقت الكافي لك ونحن دائمًا إلى جانبك.

قال (فادي) بسعادة ممسكًا بذراع (ثائر):

- يمكنك العمل بالإذاعة مع صالح، إنه حلمك.

أبعد يده عن وجهه، بين نظرات (صالح) المستنكرة لـ(فادي)، وضحكات الثاني وحماسه، تمتم:

- فكرة جيدة.

قال (صالح) بجدية مرة أخرى:

- مستحيل! أنت لا تبحث ولا تقرأ، سأوافق لو أنك اخترت كتابًا أسبوعيًا وعملت عليه.

مسح (ثائر) وجهه المبلل ثانية وتحدث بصوته المتقطع: «أنا لا أحب القراءة، لي سبب وراء هذا

انفعل (صالح) قليلًا:

- أنت لا تحبها، كيف ستقدم شيئًا ذا قيمة؟ هل سترتجل؟ هل ستغمض عينك قليلًا ثم تفتحها فتحدثني عن الحرب العالمية الثانية؟!

لمعت عين (ثائر) فجأة وانتفض؛ مما أثار دهشة صديقيه، قال بحماس:

- نعم، سأكتب عن الحرب العالمية الثانية، سأكتب عن الموسيقا.

ود (صالح) أن يسأله عن أي هراء يتحدث؟ وهذا ما توقع (ثائر) بالطبع، لكن صوت (فادي) المفعم بالجنون داهمهما:

- الفتاة التي تعرفت عليها تحب الموسيقا، أرسل لي ما ستقدمه مقدمًا لأقصه لها وأبهرها.

ضحكا بشدة بينما (صالح) تلمؤه الدهشة، والتي ما لبثت أن تحولت لضحكات...

مساء السادس عشر من يناير

طرق خفيف على باب السكن الخاص ب(ثائر)، ضيفه المنتظر (صالح)، عانقه بحبٍّ ثم جلس أمامه، توجس قليلًا من نظرات (ثائر) له، كأنه دلف لغرفة تحقيق خاصة بالمخابرات.

سأله ثائر بهدوء:

- أحدهم تقدم لخطبة أختي، أريدك كأخ لها بيوم الخطبة، مساء الغد إن شاء الله.

صمت (صالح) كمن ابتلع حجرًا، متسعة عينه تنظر له ولا تراه، لو رأى وحشًا لما تصنم هكذا. ضحك (ثائر) ثم ضرب قدم صديقه قائلًا:

- «خفت ألا تكون شائحًا في أمرك»

انكسر صمت (صالح) بتوتر وعدم فهم، ردد

- ماذا؟!

قال:

- ألست جادًا أم ماذا؟ هل تخدع أختي؟

وقف فجأة ماسحًا جبهته رغم عدم تعرقه، قال بتعثر:

- أقسم أنني لمّحت فقط ولم أجرؤ أن أفعل شيئًا غير صائب، أنا كنت أنقل المال لأراها واكتفيت بهذا، أعلم أن والدك لن يحبني.

تراجع ظهر (ثائر) قليلاً ثم قال بارتياح: «وجدت في نفسي حاجة أن أتيقن»، ثم أمسك يده المرتجفة: «أحضر عائلتك غدًا للمنزل، ربما تتم خطبة صغيرة بمنزلنا»

اختبار صعب لكليهما؛ كيف لصالح أن يخبر أهله ويستعد ويقنع والدها به؟ وكيف لثائر أن يخبر والده ويقنعه؟ ربما لا يسمعه حتى

ويطرده؛ ربما يكتشف عدم جديّة صديقه وتهور مشاعره أو مشاعر أخته. ترك كل الأمور تجري، هو فقط جزء منها يستجيب لتحرك الأمواج.

السابع عشر من يناير

نشب خلاف جديد بين الأب وابنه،

قال الوالد بغضب:

- مالك ومال أختك؟ اتفقت معها أن الرجل الذي اخترته سيكون زوجًا لها. مالك أنت تصبح واصيًا عليها وأنا حي؟!

حاول (ثائر) تهدئته:

- يا أبي إنك تسجنها، ابنتك التي تحبها تحبُّ الرجل الذي اخترته لها، بل هو اختارها وهي وافقت، لم تتزوج رجل لم تريده واخترته أنت؟!

زاد الصراخ والجدل الكثير، كل منهما مصدق أنه يعلم مصلحتها. فتحت (حنان) باب غرفتها وتقدمت نحوهما، قالت بخوف:

- أبي! أريد صالحًا.

صعق الوالد ناظرًا لعينها مستنكرًا، أخذلته ابنته؟! أباع العالم لأجلها وتبيع رأيه لأجل شاب بسيط؟! ركضت وأمسكت بيد (ثائر) قائلة:

- لا أقصد عصيانك، لكن يا أبي ثائر يفعل ما طلبت منه.

ثم تركت (ثائر) واتجهت لوالدها، احتضنته وبكت كثيرًا، ثم بدأت كلماتها تتحشرج:

- إن كنت ستضربني فافعل، لكنني لن أستطيع الحياة مع ذاك الرجل، أريد صالحا يا أبي.

بتوجس وضع الرجل يده على شعر ابنته البني، ثم حركه بهدوء مهدهدًا، قال:

- أنا فقط خائف عليك يا صغيرتي، كيف ستواجهين الحياة معه؟ ومنذ متى أضربك؟ أنا فقط خائف.

أخذ (ثائر) نفسًا عميقًا معلقًا عينه بعين أخته الباكية، الماكثة بين أحضان والدها، والذي نزل عند رغبتها بألم شديد وحرب داخلية عظيمة.

بالمساء...

تمت الخطبة بأحد النوادي العامة، لا أقرباء لهم ليزدحم المكان، طاولة بسيطة التف الجمع حولها، (صالح) ووالداه، (فادي)، (ثائر) وأخته، ووالده المنزعج منه وصديقيه، خاصة (فادي).

ابتعد قليلًا عن الجمع ، أخرج هاتفه يراقب الرقم الذي اتصل به منذ ثلاثة أيام، أخيرًا قرر إرسال رسالة، دوّن: (اليوم تمت خطبة أختي، وهي سعيدة، وأنا سعيد جدًا) وضغط زر الإرسال.

تمنى لو استطاع الرد على كل كلمة من رسالتها له، تمنى لو أنه يرسل اعتذارًا على تأخره، وربما كتب آسف أو نطقها -على الأقل- وراء كل كلمة كتبها.

بطريق عودته أصدر هاتفه صوتًا، تفقد الرسالة: (سعيدة جدًا لأجلها وأجلك، قبِّلها بدلًا مني). ابتسم؛ فأخيرًا أصبح اليوم سعيدًا وزال ألمه...

في المساء، عاد (عاصم) للمنزل، ابتسم وسأله إن كان استمتع بتناول الشاورما مع أصدقائه؛ تعجب (ثائر) من معرفته، ثم نظر لسلة القمامة ورأى بعض الأكياس فتدارك الأمر. خبّره الشريك أنه سيذهب ثانية؛ فعمله اليوم شاق، حاول (ثائر) أن يسأله ثانية عن ماهية العمل، لكنه تراجع حرجًا.

ظل يتقلب في فراشه يمنةً ويسرةً، حتى سقطت عينه على باب الغرفة الصغيرة بالمنزل.

قام من مكانه وتحرك بتؤدة ناحية غرفة أخته، لم يدخلها منذ أشهر، فتح الباب ثم الضوء، والذي حارب الظلام كثيرًا لينطلق باهتًا متذبذبًا، سرير صغير ذو ملاءة وردية، كومود ومكتب متجاوران، عمود تعلقت عليه بعض الملابس، فستان الخطوبة الفيروزي.

ينتقل للكومود فيجد وردة زهرية أسفلها ورقة، تم قصها على شكل قلب وتلوينها، كُتب داخلها: (**الأزهار تهدى لمثيلاتها، وأنتِ وردتي**).

ومظروف صغير مرسوم عليه قلوب وعلبة هدايا، مدون بالورقة الزرقاء داخله: (**كل ما تمنيت أن يفهمني أحدهم، ظننت الأمر**

كثيرًا عليّ؛ فبيني وبينه نفس، حين وجدتك، تغير الأسود لجميع الألوان. حنان)

أمسك هاتفه سريعًا مهاتفًا (صالح)، والذي رد خائفًا فزعًا من محادثة الواحدة بعد منتصف الليل، رد (ثائر) بصوت هادئ على قلقه:

- لم أجد إرثي، لكن وجدت إرثك، تعال صباحًا لتأخذه.

وانتهت المكالمة، توسد (ثائر) فراش أخته محتضنًا بعض ملابسها، رغم الأتربة؛ بينما جافى النوم عين (صالح)، الذي قضى ليلته بالفراش يتقلب يصبو أن يعود إليه النعاس...

الثانية بعد منتصف الليل...

فتح (ثائر) عينه بوهن، الألم يضرب رأسه، ربما هي الأفكار التي تتحول مع الوقت لمطارق تدق الرؤوس إن لم تتحرك، بالبداية كان يقاومها بالأدوية والحيل العلاجية، مع الوقت أصبح يقاومها باستسلام، يفرك رأسه بالوسائد من حوله، يضغط بيده عليه، يصدر أنينًا خافتًا علّه يحملها معه، وقد تذهب أو لا، بالنهاية الأمر يرجع لها لا له.

الأفكار تبقى على حالها بالنسبة له، تتحول بشكل أو بآخر، قد تصبح أصواتًا، صراخًا، يظنها هلوسة ويظنها أحيانًا استغاثات، بكاء، ألمًا لها قبل أن يكون له.

لم يعرف من الضحية الكبرى؟ لكنه اعتبرها هو، هو أكثر من عاني خلال سنوات، أكثر من آلمه رأسه وحاربته الراحة، هو ضحية لأفكار مسجونة، ولأشياء وهمية هو نفسه لا يعرفها.

حاول العودة للنوم بصعوبة، أصابه الغبار بحساسية فسعل كثيرًا وصعّب السعال الأمر؛ إذ كلما قارب النوم من التهامه، سعل منتفضًا واضعًا يده على صدره بألم، ربما أصابه البرد أيضًا، هذا ما اعتقد.

ازداد الألم برأسه، وبصدره، ازدادت الهلاوس وكأنها لاقت البيئة المناسبة لنموها؛ ظلام، ألم، لا نوم ولا صحو...

رأى والده أمامه، يقترب وبجواره أخته، حاول والده قول شيء لكن وجهه استدار وأصبح كالدوامة وأختُه؛ فتح عينه لينهي الهلاوس، فركها جيّدًا وأعاد الكرة، بيد أن الهلاوس لم تتركه، ظل يقاوم الألم والهلاوس والسعال حتى غفا بعد ساعة من العذاب...

في الصباح، طُرق باب الغرفة بشدة، أو هكذا ظن إثر امتزاج الطرق بألم الرأس، فتح عينه بكسل، سعل ممسكًا الغطاء الثقيل يضغط به على صدره. فتح الباب فإذا ب(عاصم) يبتسم له، قال بشيء من الراحة:

- خفت ألا تعود، أو أن يصيبك مكروه بغيابك المتكرر.

ابتسم له الشاب موجهًا نظره للخارج حيث الطعام، رآه (ثائر) وابتسم ممتنًا...

بدأ يستفيق قليلًا بتناوله الطعام، استغل جلستهما الهادئة ليسأله عما يجول في خاطره:

- ألم تكتب قصة وقرأتها أنا؟ أريدك لو تخبرني كيف كتبتها؟

رفع (عاصم) حاجبه الأيسر متعجبًا، فبرر (ثائر):

- التفاصيل بالقصة غير منطقية، اليوم الذي ماتت به الفتاة، هل تعلم ماذا يمثل هذا اليوم لي؟ أم أنها مصادفة؟

ابتسم له، أحضر مفكرته ثم كتب له:

- (لا شيء اسمه صدفة، عقولنا فقط أقل استيعابًا من فهم أن كل شيء بالعالم مرتبط)

عقد (ثائر) حاجبيه، تمتم ببعض الكلمات وكأنه يحدث أشباحًا بالمكان. اقترب منه (عاصم) بكلماته المدونة:

- (يمكنك أن تقرأ أكثر إن أردت)

اتسعت ابتسامة (ثائر)متسائلًا بلهفة:

- أأكمل قصة الفتاة وأفهم؟

ابتسم الآخر مجيبًا:

- (ليست قصتها، لكنك ستفهم)

العشرون من يناير

يجلس (ثائر) مع أخته وخطيبها، يتبادلون أطراف الحديث بمنزله الرقيق، فُتح الباب ودلف الوالد فجأة بعين متنمرة، سأل (صالحًا) و(ثائرًا) أن يخرجا ليتحدثوا.

قال بغضب:

- هل أصبح البيت مرتعًا؟ قبلت خطبتك لابنتي لا بأس، هل ستزورنا كل يوم؟ هل من اللائق أن أعود فأجدك تجلس معها على انفراد.

هم بالرد لكن (ثائر) قاطعه:

- أبي، لقد كنت هنا، وأتواجد قدر الإمكان، هذا لا يصح.

رد بغضب:

- أنا لم أحدثك، أم أنه ليس رجلًا مثلك!

قال (صالح) بحرج ناظرًا لموضع قدمه:

- أعتذر، لقد تجاوزت حدودي، سأرحل الآن.

ثم رحل سريعًا.

رمق (ثائر) والده نظرة غاضبة، تلومه وتتحدث بالكثير، قال الرجل:

- هل أنا المخطئ؟ ألم تتعلم كيف يكون شرف الفتيات؟ أم لأنه صديقك؟ حتى كونه صديقك مدعاة للخوف أكثر.

قال (ثائر) منفعلًا:

- أولم تفرح لابنتك؟ حسب علمي أنت تحبها، ما الذي تغير الآن؟

- الذي تغير أنني سمحت لرجل لا يستحق أن يصبح جزءًا من عائلتنا، كان لدي الرجل المناسب، لكنك وإياها اخترتما وكأنني هواء.

رفع (ثائر) رأسه زافرًا، علّ الغضب يذهب ولو قليلًا، حك رأسه ثم قال:

- إنها سعيدة، عليك أن تسعد لهذا، أو تتقبل فقط.

رفع حاجبيه ساخرًا ثم قال:

- أتقبل؟ مثلك؛ أحيا بلا هدف وأنتظر أن تلقيني الحياة؟

- أنا لا أنتظر...

قاطعه:

- لا يمكنك تصريف أي أمر يخصك، كل مرة أقول لغا هذه المرة عن الصواب، لكن سينصت لما أقول وينفذه.

شهق (ثائر) مصدومًا ثم قال:

- أنت لا ترى أن أيًّا منا يجعلك سعيدًا، لا تفخر مهما فعلنا، لا تشعر بكسر العشم الذي تجلبه لقلوبنا، أنت غير سعيد، ولهذا قررت أن أنجح وأكون سعيدًا لنفسي؛ بينما أنت لن تؤمن بأي نجاح سوى ما ترمي إليه؛ لن أهتم برأيك الذي سيحطمني ويجعلني أدمرني وأدمر أحلامي، أنتقم من ذاتي بدلًا من كلماتك اللاذعة، أتراني فاشلًا بالحياة وفلاحي منوط بك؟! أنا لم أعد أرى هذا.

استدار راحلًا، فأمسك بذراعه والدُه، قال:

- ستندم على كل ما تقول، مستقبلك يكمن فيما آمرك به.

نظر لوجهه في تحدٍ ثم قال:

- لو أنني سألتك ما هو مصدر نقودك؟ تغضب عليّ ولا تخبرني، لو أنني قررت الانفصال تعاملني كطفل أرعن.

بدا على والده الغيظ؛ قال محاولاً تمالك نفسه والحفاظ على كلماته دون انفلات، رغم بعض الحروف التي خرجت بارزة بقوة أكثر من غيرها:

- مصدر رزقي ورزقك ليس كما تظن؛ أصدقاؤنا الموتى يتركون بعضًا من إرثهم بيد عائلاتهم، والذين يسلمونه لنا، جزء من الإرث يخرج لله وجزء لنا.

- تُرى لماذا لا أصدقك؟

أمسك كتفه بعنف:

- عليك تصديقي، عليك أن تنفذ ما أقول، أنت ملكي، أنجبتك لتصبح أفضل مني.

غضب (ثائر)؛ لماذا يلومه على فجوات صنعها بقلبه؟! لماذا يعذبه كلما بحث عن عمل وكلما لم يبحث؟! كأنه طريق واحد أمامه، إما هو، أو العذاب.

قال (ثائر) بانفعال:

- طوال سنوات نبذتني، والآن تقول أنك تفكر بي؟! وأختي التي كنت تتباهى بها أمام الجميع وتلبي رغباتها، الآن صارت منبوذة لأنها اختارت غير اختيارك؟!

هدأ قليلًا، صدره يعلو ويهبط بسرعة وشدة أرهقته، سحب نفسًا كبيرًا ثم قال:

- شكرًا لك.

تعجب والده:

- ظننتك مستاءً!

أكمل:

- شكرًا لأنك تعمل بجهد على تكوين شعوري بكرهي لك، دون شعور بالذنب.

ثار والده وصاح بكلمات كثيرة، لكن (ثائر) كان قد غادر تاركًا الكلمات بلا مجيب ولا منصت.

لم يفهم (ثائر) ما قاله، لكنه صمم أن يفهم، وكان يجن من صمت (عاصم) وكلماته الغامضة...

قلَّب (عاصم) الصفحات حتى وصل لوجهته، اقترب من (ثائر) فوجده مغمض العينين بقوة، وجهه كله منقبض؛ شعر باقترابه ففتح عينه، قال له:

- هل ستشرح لي؟

كتب له:

- (سأذهب للعمل، ستجد ورقة بها لون أحمر ببدايتها، بداية القصة، لا تتكاسل لتدرك الحقيقة)

نظر له بحيرة، أيحاول أن يبدو غامضًا، أم أنه ليس بهذه البساطة التي يظهر بها؟ غادر (عاصم) وظل رفيقه الجديد معه، خيال شريكه، أو ربما قدراته المذهلة! نظف آثار الطعام بسرعة ثم أمسك المفكرة ليبدأ القصة الجديدة...

(يوم جديد، التاسع من الشهر، جنازة جديدة تسير أمامي، أنظر إليه، هذه المرة وجه شاب...

أنا هو الآن، اسمي (سليم) شاب متوسط في كل شيء، الحالة الاجتماعية، الطول، الوسامة، لديّ أبي، كل ما أملك وكل ما أحب بالعالم، اليوم هو الأول من الشهر، بعد الجمعة جلست معه لتناول الفطور المتأخر، قصّ عليّ إحدى قصصه التي أعشقها...

(كان رجلًا مقبضًا للأنفاس، كل يوم تغسل زوجته ثيابه، يجلس معنا ثم يعود متسخ الثوب بشكل بشع، تتكرر المأساة كل يوم، تسأله الزوجة باكية كيف حدث وكيف تتخلص منه؟ بليت الأثواب. يقسم أنه لم يلامس شيئًا، وأنَّ الأمر حدث بلا سبب! تغضب ويغضب فيضربها حتى يمزق غضبها ويستحيل قهرًا وبكاء.

بهذا اليوم لم يأت إلينا، قال إن صحبتنا تسبب له أشياء سيئة. راقبته زوجه طوال اليوم، جلس أمامها بثوب رمادي بهت لونه من

كثرة المساحيق المنظفة، يصرخ كلما وجدها تراقبه، كلما اقترب ابنه للعب حذاءه يلطمه كي لا يتسخ؛ خوفه على ملابسه والتعجب مما يحدث صنعًا بعقله هوسًا أشبه بالمرض.

حل موعد الغذاء فانتصب هاتفًا بزوجه أن تعجل، وهي بين الخوف والانكسار والغضب والمضد تعجبت! كيف لملابسه أن تتسخ؟ صفعها لعدم إذعانها ثم تحرك للطاولة، وحين نظر للمرآة فوجئ بما حدث، مجلس الأصدقاء ليس السبب، هل ماتت حشرة على جسده وأحدثت هذه البقع؟ لا، لا توجد حشرة بهذا الحجم.

كاد يجن، وقرر البقاء بالمنزل وإرسال زوجته لخدمة المنازل -لتلبية مطالب البيت- حتى يعثر على ضالته. باليوم السادس ترجل الرجل فجأة من مجلسه المعتاد، وبسرعة غادر المنزل متجها صوب منزل أحد دجالي المنطقة، رحّب الدجال، والرجل قص حكايته مبتدئها بأنَّ سحرًا قد افتعل لأذاه...

نادى الدجال أسماء الجان التي حفظها من وقت بعيد وكررها طوال عمره، رمى الرماد أمامه فاشتعلت النيران، عينه الثابتة بعين الرجل أربكته، لكن انتقل الارتباك لسبب آخر، اتسخت الملابس حينها؛ الدجال ابتسم لما حدث مستغلًا إيّاه، خبره بمكر أن هذا عمل خبيث وعليه اتباع خطوات عدة لمدة سبعة أيام، بعدها سيعرف من تسبب في أذاه.

أشعل الرجل البخور، قرأ الآيات دون كلمات محددة، زوجته وأطفاله لم يسلموا من أفعاله الغريبة طيلة الأسبوع، وحتى انتهى... لم ير الرجل أيّة أحلام، فذهب للدجال بغضب، يده القوية أقبضت

على ياقة العباءة الخاصة بدجاله؛ بينما الدجال ابتسم ببلاهة، ثم أخبره أن ابن عمه (فلان) يحقد عليه منذ زمن، يكرهه ويتمنى لو يصيبه كل أذى، والموت أقل ما يكون للانتقام من هذا النذل!

انصرف الرجل لبيت ابن العم لاعنًا... شاب ذو ملامح طيبة فتح الباب ليجد رجلًا ضخمًا ذا ملابس متسخة، لم يكد يدعوه للداخل حتى تلقى عشرات اللكمات بوجهه.

عقب نزيف دام ساعة بعدها، رحل الرجل متمنيًا أن تزول لعنته بالإصابة التي أصابت الآخر، لكن بقعته تغيرت للون الأحمر القاني للحظات، ثم تغيرت للأسود. حينما وصل المنزل اكتشف أنه نسي المفتاح، فطرق الباب حتى كاد يسقط من قوته؛ زوجته الخائفة فتحت الباب متوجسة مما سيحدث، أو سيبتدعه فيما بعد، وجدته يفرك ملابسه كالعادة التي أصبحت بلا وعي لديه، انتبه لها فأقصاها بيده ودلف سريعًا، أمرها بغسل الثياب وليرتدي شيئًا جديدًا...

أتعرف يا بني؟ كان غضبه يكثر يوما بعد يوم، كرهه للناس يتفاقم، إهانته لمن حوله لا تنتهي، ذهابه للدجالين -رُغم نصائح من حوله- مستمرة، حتى أنه سافر لبلاد لم يعرفها من قبل. والأكثر، أن البقع التي بملابسه لم تتوقف عن الانتشار يومًا بعد يوم، حتى بعد أنه غير المسكن والثياب وبدل غرفته مع الأطفال أكثر من سبع مرات.

الرجل يا بني لم يدرك الحقيقة، كل يوم يأمر أن تغتسل ثيابه، ولم يحاول قط أن يطهر قلبه، عشرات السنوات، قلب سيئ، أفسد حياة الرجل طوالها، لم تتسخ ثيابه، لم يكن الأمر متعلقًا بها، كل من رأى، رأى قلبه فقط!)

احتضنني متمتمًا بعض آيات القرآن ليحفظني بها...

الثاني من الشهر

كنا ننظف المنزل، وأثناء المزاح، لم أعِ أنني ضغطت على زناد البندقية الخاصة به، انطلقت رصاصة أصابت قلبه، أردته صريعًا في الحال، وأردتني مفجوعًا ميتًا...

جُررت للسجن، سجن انفرادي بزنزانة مكونة من الكثير من السجون الانفرادية، أحدهم كان يحدثني كصديق، ربما كان ينتظر حكمًا ما، وربما الإعدام.

لم أتحدث، لم أستطع أن أنطق بشيء طيلة أيام، لم أجرؤ أن أتناول طعامي، ساورتهم الشكوك أنني مصاب بحالة ما، أو أنه قتل خطأ، وإن كان هكذا، لا أؤمن بهكذا خطأ، أنا لم آكل طعامه بالخطأ، لقد قتلته!

كنت أبكي، أشعر بالألم، ألم البكاء والجوع والعطش والبرد؛ لكن هذا مجتمعًا لم يجعلني أغفر لنفسي، كانوا يسمعون ضحكاتي أحيانًا، همهمات غير مفهومة، في الحقيقة كنت أقرأ القرآن مع أبي، أستمع لقصصه ونضحك فيما بعد سويًا...

حضرت جلسات عديدة، أكثر من جلسة كل يوم؛ الأطباء يحاولون سبر أغوار نفسي، ما المرض الذي أعاني منه؟ والمحامي يحاول إثبات عدم القصد.

وددت لو أصرخ بهم كل مرة: «وجودكم يتعبني ويضغط عليّ، لا أحتمل أحدًا، لا أريد الحديث، أرجوكم اتركوني لشأني، أرجوكم! أنا أتعذب!»

وكلما زاد الحديث داخلي، كلما صمت أكثر، وربما بكيت، أردت تذكر والدي أكثر من تذكر الحادث، وأردت ألا أنسى الحادث حتى لا أرأف بحالي وأرق لمصابي.

اعتدت مع الوقت على الرفيق كثير الكلام، ساعدني بشكل ما على الشعور بوالدي أكثر، قابلني مرة في الممر فأهداني كتابًا عن بعض الطاقات الروحانية والعوالم الأخرى، قرأت بعضه ثم لم أكترث، حاولت استحضار والدي، لكن عقلي لم يعد يعمل بشكل يمكنه من الانتباه.

اليوم التاسع من الشهر، جاءني الحارس ليجرني للجلسة الجديدة، لكنني لم أرد...

نادى رفيقه ثم أحد الضباط، جاء الطبيب ثم خبرهم أنني مِت من نوبة قلبية إثر الحزن «لقد بلغ الحزن من الشاب مبلغًا عظيمًا، كذلك امتناعه عن الطعام والشراب أفقدوه كل مقاومة قد تبقيه على قيد الحياة، حتى حديثه اقتصر على سؤال واحد، يسألنا عن ملابسه إن كانت متسخة ولم نفهم مقصده! ليرحمه اللّه!»)...

سعل (ثائر) مقلبًا الصفحات، متسائلًا: (كيف ساعده الشاب؟! هل هناك تفاصيل مخفية أيضًا؟).



قبيل المغرب، وصل (صالح) المنزل الصغير، بشّر (ثائرًا) باتفاقه مع رب عمله أن يجري معه مقابلة؛ ليحدد مدى مناسبته للعمل في الإذاعة.

لم يكن بال (ثائر) صافيًا ليتحمس ويقفز فرحًا بهذا الأمر، لكنه فرح وابتسم للأمل الجديد.

دلفا لغرفة أخته، اضطرب (صالح) مانعًا الدموع من التساقط، لكنه ما إن رأى أغراضها حتى بكى، بكى بحرقة طفل فقير يسخر للعمل بينما باقي الأطفال حوله يلعبون. حاول (ثائر) تهدئته لما يقارب الساعة، يمسك ذراعه ويستمع لكلماته المقطوعة غير الجلية.

أمسك الباكي بفستان رقيق فيروزي، مطرز بالورد الرقيق كصاحبته. اقترب منه (ثائر) بالظرف الصغير؛ والذي ما إن قرأه حتى انهار أرضًا.

نسي (ثائر) ما جال بخاطره طوال اليوم، واستبدلت أسئلته بأسئلة أصعب، هل كانت أخته رائعة؟ هل أحبها (صالح) لهذه الدرجة؟ بل هل يبكي القوي دائمًا؟!

نفض (ثائر) الأتربة عن السرير بشكل عشوائي، لينام عليه صالح ويقضيا الليلة سويًا. بعد ساعاتٍ من الليل، قال (صالح) بصوت بُحّ من الدمع، ناظرًا لفستانها الذي علقه بحذر:

- هل تعرف أنها كانت تحب هذا اللون كثيرًا.

لم يرد (ثائر)، نظراته المعلقة بعين صديقه كانت الرد، يشفق عليه، وصديقه لا يكترث لهذا، لا يجرحه، لأنه جرحه أعماه عن أي جرح آخر قد يؤلمه بظرف مختلف.

أحضر ثلاثة مقاعد ووسادة، ثم استلقى على مقربة من صديقه النائم، أمسك هاتفه يقرأ اسم (بارديس) مرات عدة، يتمنى لو يهاتفها، لو يحدثها قليلًا! لو أنها تعرف مسبقًا ما يقول فتتصل وتخبره بألا يحزن. احتضن الهاتف، بل احتضن اسمها، ثم أغمض عينه بالنوم ورؤيتها...

عادت التساؤلات جميعًا برأسه، عادت ألمًا، يضرب رأسه ويؤلم خلايا جسده، كأنها تتحرك صارخة، فتح عينه؛ ظِلٌّ ملتصقٌ بفراشه، أسود باهت قصير؛ أغمض عينه بألم أكبر، الهلاوس والحركات برأسه وخارجها لا تتوقف أبدًا. فتح عينه فوجد الظل أوضح، رجل قصير يرتدي ملابس سوداء، تغطي ملابسه وجهه، فلا يظهر سوى أسفله.

«صالح...» قالها بصوت واهن، حتى أنه لم يستطع التلفظ بها كاملة.

أغمض عينه خوفًا، يفكر، الهاتف بيده، هل يضيء الظلام؟ ماذا لو أنه تحرك إن تحرك؟ غوّث؛ ولا صوت يخرج، فتح عينه متفقدًا، أصبح واضحًا تمامًا، رجل قصير ملتصق بفراشه، ملابسه سوداء، وجهه رمادي؛ ربما ليناسب الملابس والظلام، بشكل ما اعتقد أنه ينظر إليه بتفحص، رغم عدم رؤية عينيه.

أغمض عينه محاولًا عدم فتحها، لا يعرف لماذا يتفقده كل دقيقة؟! هيئ إليه أن هذه المرة سيجده مائلًا ناحيته، أو ممسكًا بسكين أو مسدس لقتله، ربما يقتله بيده ولن ينطق أيضًا. ازدادت ضربات قلبه بشكل كبير، حتى أنه خاف من صوتها؛ قلبه يريد الهرب من جسده! يضرب بقوة ويصرخ بدلًا عنه.

ظل مغمضًا خائفًا، يستجدي قلبه أن يهدأ، لكن الخوف أكبر منهما، يفتح عينه بين الحينة والأخرى بشكل طفيف، يتبين الظل أمامه فيغلقها مسرعًا.

فتحها أخيرًا قبيل الفجر بدقائق، رأى شيئًا متدليًا من طرف السرير أمامه، ربما فستان أخته؛ أغمض عينه بسرعة كي لا تتجدد الهلاوس.

أذن الفجر، يعرف أن المخاوف تذهب بذكر الله وصوت الآذان، لم يدرك كم ظل على حاله، لكنه شعر بأن الخلاص سيقترب...

حركة (صالح) بالسرير مستفيقًا طمأنته قليلًا، تحرك متجهًا أمامه، عبورًا للباب المنفذ للخارج. فتح عينه، فلم يجد شيئًا أمامه، لا ظل، لا فستان، لا شيء!

دلف (صالح) للغرفة باحثًا عن شيء يجفف به وجهه ويده، موقظًا (ثائر) ليدرك الصلاة، والذي لم يدر لم يهجم عليه النوم بهذه الشدة الآن؟ لا يذكر متى صلى الفجر آخر مرة؟ بل متى صلى عامة؟ توضأ وذهبا معًا للمسجد، ثم عادا ونام (ثائر) حينها كالقتيل الذي لم ينم منذ أشهر، اطمئن بوجود بوادر الضوء، فنام محتملًا

الأصوات المزعجة برأسه، والتي أصبحت في درجة متدنية بالنسبة لهرم المخاوف الخاص به.

طرقات رقيقة على باب المنزل المهترئ أيقظتهما، عاد الشريك الغريب ليغير ملابسه ويعود لعمله الغامض. قلب (ثائر) الواجف وعيناه الحمراوان، وذهنه النائم، أفقدوه الإدراك حتى مغادرته، حينها هرع للباب يبحث عنه؛ يريد أن يسأله: هل يعرف كل شيء عنه ويتلاعب به، أم أنه موهوب حقًا؟

فرك عينه متفقدًا (صالح) بغرفة أخته، ينظر للفستان، ثم يجول ببصره في الغرفة، سحب نفسًا قويًا ممنيًا ذاته برائحتها، لكن الغبار يملأ رئتيه فيسعل بشدة، يبتسم (ثائر) ممسكًا بذراعه، يقول بهدوء: «هيا يا صالح، أصبح وجهك أحمر، لدينا عمل شاق حسب ما خبرتني»

حرك شدقه محاولًا الابتسام، ثم انصاع له، أحضر الطعام والذي تناولاه على عجل، ثم خرجا ليقابلا المدير.

بمبنى الإذاعة، جلس (ثائر) أمام الرجل بتوتر بالغ، صديقه ينتظره بالخارج؛ فمن غير المسموح أن يدعمه لدرجة الجلوس معه. سأله الرجل أين عمل من قبل؟ فأجابه بشيء من التلعثم؛ نظرات الرجل انتقلت للخارج، يلوم (صالح) على هذا الصديق المخيب للآمال. قال له:

- في الحقيقة، جاملك صديقك أكثر من اللازم.

هبَّ ليرد لكنه تراجع، أغمض عينه، يتخيل ابتسامتها، تشجيعها له، أنه يقترب من الحقيقة. فتحها ليجيب بهدوء يشبه طريقتها:

- أعتذر سيدي، ربما توترت قليلًا، عندما نحلم بشيء فإننا نرسم مئات السيناريوهات بشأنه، فمثلًا قد تخيلت أنني أطلق أفكاري أمامك بثقة، تخيلت أنك تنبهر بي وتقول يا إلهي لقد توسمت بك كل المؤهلات بمجرد النظر...

إنها الأحلام يا سيدي، حتى أنني تخيلت الخوف والبكاء، تخيلت الصلابة والهشاشة، وحين أوتيت الفرصة، وجدتني أتلعثم كطفل صغير بأول اختبار له بالمدرسة، أتخبط كمن لا سند له، ورُغم أنني بلا سند نوعًا ما، إلا أنني وجدته داخلي، وتحدثت الآن»

ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه الرجل، فحصه بنظرة بسيطة، يده ثابتة لا يفركها، تتحرك فقط مع الكلمات، حركة فمه متزنة، ابتسامته شجاعة. لم يكتسب الأمل بشأنه كليةً، لكن على الأقل دحض فكرة رفضه.

أردف (ثائر) بثقة أكبر وابتسامة أوسع عقب تبينه رضاه:

- سأصرف أعمالي بحذق سيدي، أؤكد لك، لدي من الأفكار الكثير، مثلًا يمكنني مناقشة فكرة تجول برأسي...

شرع يتحدث عن المواهب الأقوى، والتي دائمًا تنبع من أصحاب العيوب الخلقية، مثل بيتهوفن وغيره وغيره... اتفق معه أنه خلال أسبوع سيقدم إعداده الخاص للحلقة، سيساعده صديقه، أي أنه

متدرب الآن تحت الملاحظة. إن حازت إعجاب المدير، سيتم تقديمها وتخصيص ساعة أسبوعية له، وهذا أيضًا يتوقف على نجاحها...

خارج المبنى، وأثناء سيرهما تجاه المنزل، قفز (ثائر) كثيرًا محتفلًا بهذا الجزء من الانتصار، قال بحفاوة:

- أتعلم؟ لقد تحقق شيء لم أتوقع حدوثه سوى بأحلامي، حتى أنها ضنت عليّ به.

أمسك ذراع صديقه قائلًا بضحك:

- ستفخر بارديس بي كثيرًا.

ثم تجهم فجأة، وتجهم صديقه.

استدار ليمشي معتدلًا، ناظرًا للفضاء، بل يرى موقف سابق دون انتباه للطريق، والذي أنقذه (صالح) من حوادثه مرتين!

الواحد والعشرون من يناير...

في المقهى المعتاد لهما، طلبا قهوة لتدفئتهما؛ كانت تمطر بالخارج. لفّت الوشاح الصوفي على جسدها الأكثر بردًا، ثم نظرت إليه مبتسمة، ظلا على هذه الحال دقائق، رفع الفنجان إلى فمه، احتسى القليل فقلدته، ابتسامته اختفت وتبدلت بوجوم، معلقة عينه بخاتم يحيط إصبعها؛ انتبهت فأنزلت يدها مسرعة، ثم تلاعبت بالخاتم بيدها الأخرى متأملة إيّاه ومبتسمة. قالت له بابتسامة صافية وشبح ضحكة:

- أظننتني مخطوبة؟

لم يجب؛ لا يعرف، أينكر ضاحكًا ويخبرها أنها أساءت الفهم؟ كأنه وجم لسخونة القهوة، لجمال وجهها، لأي سبب آخر! أو يضحك ساخرًا من نفسه ويعترف؟

طريقتها توحي بأنه أخطأ، هذا ما أدركه، لكنه لم يدرك أنه مرت دقيقة كاملة يحسب بها الرد المناسب؛ فأردفت هي:

- أهدى والدي هذا الخاتم لوالدتي، هو خاتم والدته، قال أنني سأرتديه يوم زفافي، إرث عائلي أعني، ولكن...

ابتلعت ريقها ناظرة للأسفل، كأنها لم تحب هذا الحديث، ثم رفعت عينها بتحد لهذا الصراع داخلها:

- عندما توفي والدي ألقته أمي؛ حصلت على ذهب بديل يكفي لشراء مائة من هذا الخاتم، وحينما ألقت به؛ التقطته أنا، كنت أرتديه كل يوم، أنتظر أن تكبر أصابعي ليليق بها. قررت بالأمس أن أرتديه للأبد، أو لأبدي الخاص، أوقن أنه يحميني.

رفع حاجبيه متعجبًا:

- مم؟!

ابتسمت بألم ناظرة للقهوة أمامها، محركة أناملها على أطرافها، سحبت نفسًا قويًا ثم أخرجته حديثًا خجلًا:

- الأصوات، الأشياء التي أسمعها، الآلام التي تحيط بي.

- أي أصوات؟!

- هذه قصة طويلة، وألم كبير، يمكنك القول، أنا أسمع كل شيء حولي، حتى أن كل صوت يصبح عذابًا.

- تتمتعين بحاسة قوية إذا.

ضحكت بهدوء:

- أعاني ضعف السمع قليلًا، لكنه شيء مختلف، أصوات تأتي من داخل رأسي.

حاولت تغيير الأمر فسألت ناظرة لعينه:

- هل تحب والدك؟

امتقع وجهه ثم عاد بظهره قليلًا، قال بلا مبالاة:

- أحيانًا أشعر أنني لا أطيقه ولا أطيق صوته، وأحيانًا أشعر أنه أبي، وأن الإنسان يحب والده بلا شعور، ربما لو أحبني مثل أختي لتغير الأمر.

تعجبت مبتسمة، محاولة إذابة جليد الحزن:

- ظننته يحبك أكثر منها، ظننت الوالد يحب ابنه الأكبر.

ضحك ساخرًا، مجاريًا ابتسامتها:

- هكذا هم الآباء، يفاجئوننا.

قالت بتسرع:

- أظنني حلمت بشيء يخصه.

قال مندهشًا:

- أبي أنا؟!

تراجعت حين تبينت خطأها:

- لا لا، أظنني تحدثت عن شيء آخر، يبدو أنني شردت، أو أن الألم برأسي جعلني أهذي.

قرب مقعده منها قلقًا:

- أأنت بخير؟

كانت ستجيب، لولا سماعها موسيقا أسعدتها، نظرت للأعلى شبه ضاحكة، ثم إليه وقالت:

- أحبها كثيرًا، اسمعها إن شئت.

لكن الموسيقا تغيرت وابتدأت أغنية غيرها؛ انتكس حماسها وخابت آمالها، نظرت إليه بابتسامة ساخرة: «حظي المعتاد» ثم ضحكا قليلاً... سألها عن الأغنية لتعود ضحكاتها بعد أن خمدت، قالت بلهفة وأمل:

- شئون صغيرة، كتبها نزار، أحبه والدي، وأورثني حبه هذا...

ظلا يتحدثان عن كتابات نزار، وشغفها بشعره وببعض القصص التي تهربها من الواقع بسهولة فترة ليست بقليلة، يراقبها هو ويضحك عندما تضحك، وتتخجل هي حينًا، وتتحمس أحيانًا...

قال لها:

- سعدت بسعادتك، أعرف أنها ليست بسعادة حقيقية ولكن، حسبي بأنك تضحكين.

وقفت بعدها قائلة:

- عليّ المغادرة الآن.

وقف فزعًا هاتفًا:

- انتظري.

تعجبت؛ لم تبتعد ليهتف هكذا؛ استشعر الحرج، ضحك خجلًا ثم أخرج مظروفًا من حقيبته الصغيرة، لقد كتب رسالة لها علّه يبقى على اتصال معها بهذه الحجة.

ابتسامتها اتسعت حتى ضحكت، أمسكت المظروف بتردد وخجل. ولو أن لديه قوى خارقة؛ لرأى قلبها الذي يكاد يقفز من موضعه ويحتضنه شاكرًا اهتمامه. نظرت لعينه ثم إلى المظروف ثانية، ضحكت ثم غادرت المكان...

نقد العامل بالمكان، ثم سأله مقابلة المدير لأمر جلل...

ابتاع صالح الطعام، تناولاه ثم رتبا المنزل، خاصة غرفة أخته (حنان)، لم يستهلك الأمر كثيرًا؛ فالمنزل عبارة عن غرفتين صغيرتين.

استمرت الحياة خلال أيام بالمنزل، حيث (ثائر) يجتهد ليلًا نهارًا ليخرج أفضل ما عنده، مقاومًا الأصوات والأشياء التي يراها؛ و(صالح) يذهب للعمل، يحضر الطعام، يساعد صديقه ويبكي حبيبته؛ صديقهما الثالث يمر أحيانًا يرافقهما ويقص تجاربه مع الفتيات اللواتي يعرفهن، ويقص الكثير عن الفتاة التي قابلها مؤخرًا، والتي بدا لهما أنه سيلحق بركب العاشقين السابقين لأجلها.

وأما (عاصم)، فكانت زياراته خفيفة وبسيطة، لا يسمع لـ(ثائر) أن يسأله عن أي مما يؤرقه، ولا يفتعل أي أحداث جديدة سوى أنه شريك بالمنزل بشكل صوري.

الواحد والعشرون من يناير

السابعة صباحًا، يستند (ثائر)على مكتبه الصغير، المليء بالورق المبعثر، رأسه معلق بالسقف وقلم أزرق مثبت في فمه، يهز قدمه لتضخ الأفكار إلى عقله، كأن قدمه تدعم قلبه، نظر للورقة البيضاء أمامه، سحب نفسًا كبيرًا، ثم شرع يكتب:

(العزيزة بارديس،

لا أعرف كيف تُكتب الرسائل؟ وكيف أكون لبقًا مثلك؟ لكنني سأحاول سرد ما يجول بخاطري ويخامر قلبي... حدثتني عن حياتك، وسأطرح أمامك الشق المؤلم لي أيضًا، منذ أكثر من عشرين عامًا، صرخة أمي أعلنت قدومي للعالم.

لم أكن كباقي الأطفال، لم أكن مرحبًا بالعالم كذويّ، تمت الولادة ببيت بين المقابر، بيت صغير لا يعرفه سوى زائريها، وزائروها لا يعرفون ساكنيه.

فوجئ الطبيب أنني أحتضر، لم أبك بدلال ثم أتصرف ببلاهة مستقبلًا وجه أمي وسعادة أبي وتقبيل كل من يراني. قرأت مرة أن الإنسان يرى حياته داخل الرحم، واعتقدت أنني سأغير القدر؛ لم ترقني تلك الحوادث، لم أحب لواعج القلب وانشقاق الروح، ولدت وقد لففت الحبل السري حول عنقي، ولولا شدة الصياح وتعجل والدي على رؤية ابنه ذكرًا، واستحلال الطبيب لما نُقده؛ لما تم إنقاذي.

في هذا اليوم، التقت روحي بأرواح الجيران، ربما أقنعوني بأن عالمهم أرقى وأهدأ؛ وأن عالمي أفاك أثيم؛ أنني حتى لن أمر بأي سوء إن جئتهم الآن؛ لكنهم أعادوني – قسرًا– لهذه المعونة.

كلما عاد هذا اليوم، وجدت الجميع يضحكون، إلاي، لماذا؟!

كل عودة له أقرر الموت، لا أقبل على الانتحار، بل أنتظر، أجلس بركن محملًا بآلامي، آملًا أن تشفع لي ما عانيت عند الله فيرحمني؛ وتشفع لي عند الدنيا فتزهق روحي.

أنا يا بارديس ميت منذ يوم ولادتي، منذ سمعت الصيحة الأولى برحم والدتي، ميت ينتظر فقط أن يرحل جسده، ألا يذعن لأفكار الأمل الغبية، لا يأمل أبدًا ولم يجرؤ عليها قط؛ يدرك أن الأمل أول الخائنين، يعيش ليموت، ليس بيده حيلة

الانتظار بسلام حتى، يساق للموت كل ليلة، حتى أن هذا اليوم لا يشح عليه بإذاقته نكهة الموت؛ إنه الأسوأ؛ كأنما يصبو – لهفةً– لنبذي بعيدًا عن عالمه.

تُوفيت والدتي التي لا أذكرها بعد خمسة أعوام، برواز صغير به صورة مكرمشة لامرأة عابسة بجوار أبي الشاب، لا بد أننا عشنا الكثير سويًا، وربما حري بي أن أتذكرها وأشتاقها كأختي الأصغر، والتي فارقتها بعامها الثاني، ولكن، الزمن أقوى من كل شيء لا ليس الزمن، هذه مقولة سيئة وسخيفة، الهموم أقوى، لم يعاملنا أبي كصغار يحتاجون الحب والرعاية، كان أبي يضربني كثيرًا؛ لم أكرهه قط، لكنني كرهت كل رجل أبصره يعنف طفله أمامي، ربما كنت أفتعل معه شجارًا ويجرني والدي معنفًا بعدها حتى المنزل، ثم ينهال عليّ ضربًا.

كل الرغبات ممنوعة، لا مكافئات، فقط عقاب، وقد كنا جيدين بدراستنا –خوفًا– من بطشه وغضبه، حتى شاء الله وأصبحت بالجامعة، لم يعجبه ما فعلت، لم أصبح طبيبًا أو مهندسًا، شاب بلا فائدة، انهال عليٍّ بالضرب، واخترت فيما بعد الهرب، أتلقى النقود منه، آملا أن أصل لعمل يعولني ويكفيني، ومتمنيًا نجدة الصغيرة.

تغيرت معاملته مع (حنان)، هاتفها دائمًا مغلق فلا أستطيع الاطمئنان عليها، كلما رأيتها أرى الكسر بعينها، عليها الاجتهاد والعمل بالمنزل ليلًا نهارًا.

حين قُبلت لدراسة الصيدلة؛ تغيرت معاملة والدي معها قليلًا، أصبحت محبوبته الجميلة؛ أما أنا، لا شيء. أبي يعاملني كحيوان ابتاعه من متجر رخيص، لم يجن منه شيئًا، فصار يؤنب نفسه على الطعام والنقود التي يدفعها لأجل بقائه.

بل إنني عرفت كم اللطف بقلوب الحيوانات، حتى القطط، ننعتها بالجحود، ولا ألومها أبدًا؛ إن كان الغدر فعل الإنسان لكل من حوله؛ فكيف يأمن الكائن الصغير؟!

لا بد أنني أطلت، وأنك ستنزعجين الآن من هذا الكم من الكلم الحزين، والذي لا يهمك في شيء، وإن أبديت اهتمامًا.

شكرًا لأنني عرفتك، إنها المرة الأولى -تقريبًا- بحياتي التي أتعرف إلى فتاة وأتحدث معها أيضًا، شكرًا لوجودك.

أطيب التحايا

ثائر المبتدئ)

انتهى تسجيل الحلقة الجديدة والأولى لثائر، ينظر بين الحين والآخر لصديقه مكتسبًا ثقة ودعم، ويراقبه المدير متأملًا ومتوجسًا أيضًا. ضحكا كثيرًا مازحين طوال الطريق؛ خبره صديقه أنه اجتاز الأمر بسلاسة وقدم موضوعًا رقيقًا مشجعًا أيضًا...

دلفا للمنزل، ثم حضّر (صالح) حقيبته مودعًا صديقه، داعيًا اللّه أن يحفظه دعًا...

رافق (ثائر) ألم خفيف برأسه، شوشه قليلًا، حتى أنه ظن صوت الأقدام هلاوس تعبث معه، إلى أن دلف (عاصم)على استحياء؛ هب (ثائر) واقفًا صارخًا به:

- لماذا تتلاعب معي؟ إن كنت تعرف الكثير لماذا لا تقوله مباشرة؟

لم تتغير نظرة (عاصم) البريئة، كتب له:

- (أنت تقترب كثيرًا، وأظنك فهمت، أو سرت الكثير من الخطى)

أجابه منفعلًا:

- لم أفهم، من أنت؟ لماذا هذه التواريخ تحديدًا؟!

قلب المفكرة أمامه، ثم قربها لوجهه مشيرًا لقصة جديدة؛ لطمها (ثائر) ولم تسقط، قال:

- لا أريد المزيد من هذا الشيء، أريد أن أفهم، إلام ترمي؟

كتب (عاصم) بهدوئه الذي لم يتخل عنه، حتى أن (ثائر) ظنه فاقدًا للقدرة على التعبير بوجهه:

- (سأترك القصة معك، وسأتركك لتهدأ، ثم ستفهم وحدك بعد قراءتك)

وضع المفكرة على مقعد بجانبه ثم همَّ بالرحيل؛ جذب ذراعه (ثائر) آمرًا إياه بالبقاء، لكنه سحب يده بهدوئه المستفز للآخر، راحلًا بلا اكتراث، مخلفًا وراءه مفكرة ورجلًا ثائرًا...

جال المكان إيابًا وذهابًا كثيرًا، عشرات المرات ربما، ويرجع هذا أيضًا لضيق الغرفة الصغيرة. اهتدى أخيرًا للقراءة، أمسك المفكرة، مقلبًا بعصبية جعلته يقلب متقدمًا ومتخلفًا كثيرًا، حتى استقر على الصفحة المقصودة.

(جنازة صغيرة، شابة عشرينية صغيرة، رجل وامرأة جامدان، وفتى ساهب كمن يرى الموت لأول مرة ولا يعرف ما الذي يجب أن يشعر به...

عشرات الغرباء يقفون حول الكفن، أقترب منه، امرأة بأواخر العشرينات، تأملت وجهها غير المرئي، حتى صارت أنا...

اليوم التاسع من الشهر، لا أعرف هل أبكي أم أسعد لموتي؟ هل تحررت أم أنني لم أكن جيّدة كفاية؟ أم أن صبري لم يك كافيًا؟ إن الوفاة تذكرنا بكل شيء، منذ الميلاد وحتى اللحظة الراهنة...

أذكر كوني طفلة رقيقة، أسعد بضحكة من أمامي وأخجل من غزل لطيف، أبكي لبكاء من أمامي أيضًا، كنت أشعر بالجميع. ابتهجت حياتي حين صارت لي أخت صغيرة بأعوام كثيرة، بالبداية شعرت بالغيرة منها، لقد أحبتها أمي أكثر، اجتمع الناس حولها، وما لبث سخطي أن تحول لأمومة حين أدركت بغض أبي لنا؛ كوننا فتيات نرسم طريق الهموم أمامه كما قال؛ تتصاع أمي لفكره حينًا وتشفق علينا أحيانًا. كثرت الزيارات، ما بين مواس ومرحب، من ينظر لي ولأختي بسخرية مباركًا ابنه -الذكر- بأذكار لحمايته، وبين من يدعو لأمي أن تنجب المرة القادمة الذكر؛ وأولئك القلة الذين أحبوا وجودنا، حتى أن إحدى صديقات أمي اشترت لعبة صغيرة تشاركتها مع أختي.

كبرنا وسط العائلة التقليدية، العرف يحكم كل شيء، وكنت فاقدة شيء ما، عوضني تقربي من أختي الكثير، لكن بالطبع هذا الشيء في القلب كان يكبر يومًا بعد يوم، أدركت أنني كبرت حينما ازدادت مسئولية المنزل على عاتقي؛ هذا دليل أن الفتاة قد أصبحت امرأة، رغم أنني كنت بالثالثة عشرة. تعلمت الوقوف أمام المرآة، ابتعت أحمر شفاه وأخفيته بين حاجياتي أنا وأختي، نغلق الباب ونتزين، نضحك كثيرًا، ثم نخفيه حين يقترب صوت أحد والدينا...

لقد أصبحت أنثى؛ هذا ما قالته المرآة طيلة ثلاثة أعوام، وهذا ما شعرت به نفسي، أشتري القصص الرومانسية ونقرؤها، أحلم وأختي -التي صارت بالعاشرة- بفارس الأحلام الذي سيبني قصرًا لي وسأنقلها معي، ستشتري كل ما تتمنى من ألعاب، وربما أكون أمها الجديدة.

(رامي) الشاب الوسيم بمدرستي، لم يكف عن مطاردتي، بالبداية ردعته وأحبطت آماله، لكنه أصر، ووجدتني رغم رفضي؛ هذا ما رُبيت عليه، أشعر به معتكفًا برأسي، لقد صار بطلًا لكل الروايات التي أحبها، وأنا بالطبع البطلة.

بيوم مشئوم، اقترب الشاب بعد انتهاء اليوم الدراسي مستوقفًا إياي، يقف خلفي تمامًا، صوته حنون، يشبه الشيء الذي أبحث عنه منذ سنوات، لم أعرف ما الذي يفعله قلبي، أيريد الفصح عما يفكر به، دقاته تصطدم بجسدي كله، حتى أنه يرتجف، وددت لو أهرب؛ لكنني مذعنة له؛ وودت لو ألتف؛ بيد أن رجفتي ستوقع ثقتي ورفضي تحت أقدامه، وسيعرف أنني عشقته منذ الشهر الأول.

تحرك هو وصار أمامي، نظرت للأرض مقبضة يديّ وصامتة، وجهي الأحمر ورجفة فمي يفضيان بما يسيطر عليّ. أمسك يدي فرفعت عيني شاخصة ومصدومة، قال بصوته الحنون: «سأنتهي من الثانوية وأعمل مع والدي بالورشة، ثم أتقدم لخطبتك، فقط وافقي عليّ، أقسم أنا لا أتلاعب بك»

لم أستطع الرد، تفحصته بلا وعي، عينه بنية، لديه لحية صغيرة تنبت، أنف غليظ، وابتسامة مطمئنة، هي ابتسامة الفوارس...

لم أنتبه سوى لصوت رفيقتي بعد دقائق، أبعدت يدي وهرعت لها، متجنبة النظر للوراء، أظنها وبختني؛ لكن صوته بقي عالقًا برأسي.

هكذا سلبت روحي، قصصت على صغيرتي قصتي وكأنها رواية ما، كانت تهلل وتقول إن البطلة ستعيش مع البطل وتنجب الأولاد والبنات، بالطبع الأولاد بالمقدمة.

رأيته باليوم التاني، وبكل يوم يليه، تارة أهرب منه؛ وتئار يحلق حولي حتى أذعن. لم يساوني شكًا ولو مرة أن أحدهم يفعل بي هذا؟

أعني رفيقتي، فبعد أسبوعين، ناداني الشاب الوسيم، والذي تقلد منصب أمير قلعتي وغربتي، حاولت التملص خجلًا، وكم أحب هذا! لكن بالنهاية ذهبت، وقفت أمامه ناظرة لحذائه الأسود المهترئ، مبتسم وجهي الأحمر، أرد بكلمة أو كلمتين على جمله الرومانسية.

فجأة، يد غليظة أمسكت بشعري المغطى بالحجاب، صرخت ملتفة لأراه، والدي!

رأيت نظرة رفيقتي التي دلته، ولم أر بعدها سوى الأرض التي جررت عليها بعنف؛ حيث سقطت إثر قوة والدي...

استبدل كل شيء، صوته بصوت صراخ والدي وضربه، احمرار الوجه خجلًا بتورمه وتباين الألوان به، وبباقي جسدي، حُبست في غرفتي، وتم التحقيق مع أختي علّها تبوح بباقي أسراري، ولم تقل الصغيرة شيئًا سوى أنها خائفة.

مكثت بالغرفة، أغادرها لإعداد الطعام وأعمال التنظيف، ثم أعود منتكسة أبكي بركن مظلم بغرفتي.

أيام مضت حتى عاد والدي من عمله، فتح باب الغرفة ملقيًا لعنتي السيئة ثم ذهب: «ستتم خطبتك اليوم، تحضري»

بكيت، وكنت أدعو أن يعرف رامي وينقذني، أدعو أن يكون هو خاطبي.

في المساء، جهزت مع والدتي بعض الشربات، لا أعرف هل يحتفل الآباء بموت بناتهم دون شعور دائمًا؟! أم أنه بحينا فقط؟

غمزتني والدتي قائلة بسعادة: «يا لك من محظوظة؛ والدته متوفاة، والرجل غني، لا كرب بحياتك يا سيدة»

سيدة؟ أأصبحت سيدة؟ أكملت السادسة عشرة منذ أشهر، أأصبح سيدة بسهولة هكذا؟!

بغرفة الاستقبال، رجل ضخم، يشبه الرجال، وأعني يشبه أبي، لديه شارب كثيف، ويبدو أنه ممن يحبون إنجاب الذكور.

قدمت المشروبات وأمسك يدي سائلًا: «أنت زوجتي أيتها الحلوة؟»

نظرت لأبي بعد سحب يدي بقوة؛ انتظرت أن ينهره، لكن ضحكاته صدحت بالمنزل. هربت لغرفتي، وأسموا هروبي خجل فتيات.

تمت الزيجة بعد أسبوع، تخلص والدي مني، من عاره!

وظللت مع الرجل الذي أخاف منه ومن صوته سنوات، سُوّمت الذل فيهن، أذرت عيني دمعها كل يوم، كنت أعود لمنزل والدي غاضبة من ضربه وإهاناته؛ فيعيدني والدي ليديه كدميته التي يتحكم بها، بل يتحكم بها الجميع...

أنجبت طفلي الأول بعد عامين، وحاولت أن أجنبه الحياة التي حييتها، (رامي) الصغير، لم يكن بالعالم من هو أحن منه.

سنوات مرت وابني يكبر وآلامي تكبر، وجراحي تفسد، كلما اندملت تطعن بقوة، احتفظت بجانبي العاطفي وصنعت منه قلادة حول عنق ولدي، تصل إلى قلبه. حتى ذلك اليوم، انهارت أعمال زوجي، ابتهجت لدخوله السجن، وأخفيت سعادتي خوفًا منه، لكنني شعرت بالتحرر من قبضته، وقبيل الحكم النهائي، تُوفي الرجل معتل القلب...

عدت لمنزلي مع ولدي الصغير، ابن العاشرة. كان شغوفًا بمعرفة كل شيء حوله، بريء القلب، طاهر الروح؛ وقد أصبح صديقًا بسرعة لخالته الجميلة.

لم يحب والدي ما حدث؛ حمّلني مسئولية موت زوجي، ولا أعرف كيف التفت الأمور برأسه لأصبح مسئولة عما آل إليه أمري؟ فهمت أنه يريد مني المال فقط، أي أنني وابني حمل ثقيل، بينما حسبت أنه سيحب الولد كما تمنى. بحثت عن عمل ووجدت بصعوبة، ولكنه حلّ مشكلة، واختلق ألفًا؛ كلما تأخرت ثارت حفيظة والدي؛ إذ كيف تتأخر أرملة عن العودة؟ ماذا يقول الناس؟ بل إنه حتى شك في وتابعني مرارًا مراقبًا.

قررت الانفصال عن منزل أسرتي بعد بضعة أشهر، انتقلت لشقة زوجي مع الصغير، يذهب لمدرسته وأذهب لعملي، ثم أمر عليه بعودتي؛ أختي تأتي باستمرار للاطمئنان، رغم سعادتها بالمجيء، إلا أن والدي من يرسلها لمراقبتي.

أخفيت عن الغرباء كوني أرملة؛ فالأرملة بعينهم هي امرأة مناسبة لاجتراح الآثام. وتعرضت لمحاولات تحرش، وعروض تليق بالبغايا...

صرت كنودًا، فكرت بالانتحار كثيرًا، لكن أختي صدتني عن أفكاري، كذلك وجود الصغير، والذي تعذب أيضًا من هؤلاء الذين أرسلوا معه رسائل لاستمالة والدته الأرملة، وتعذب لشح المال والطعام. لم تساندني السيدات، وأدركت أن البشر يحبون رؤية غيرهم مخطئين؛ ظانين بهذا أنهم ملائكة!

إحدى الجارات صارت صديقتي، امرأة جديدة على حينا، تعيش وحيدة مثلي، وتساعدني لأصبح قوية، قدمت لي الأمل والسعادة مرة ثانية...

الأول من الشهر...

جلست أختي مع الصغير بينما أحضر الطعام، قصت له إحدى حكاياها، فقد كبرت أختي ولم تعد تستهويها قصص الحب، بل المآسي الإنسانية والأحزان، وربما كنت ملهمتها؛ أما أنا، فلم أعد أقرأ أبدًا، حيث كفرت بالحب والخير المنتصر والسلام الذي يحياه الأخيار بالنهايات...

قالت: «منذ مئات الأعوام، في أوروبا حيث عصور الظلام، تمثّل الظلام في الظلم، اتخذ الناس المثالية والدين ستارًا لبشائع جرائمهم، الغني يدهس الفقير، القس يفرض أشد العقوبات على أقل الأخطاء، لم يكن هناك مجال للخطأ.

أذكر أنني قرأت عن الملاجئ، عشرات الملاجئ للأطفال الذين تخلى عنهم ذووهم، أو لم يكن لهم من البداية، ولأن لا أحد سيعيرهم اهتمامًا، ولا أحد سيهتم ما إن كانوا بخير أو لا، جعل المشرفون الأطفال يعملون، جوّعوا بطونهم حتى يعملوا، ويأخذوا قدرًا مما كسبوا بجهدهم والباقي للمشرف، بينما التبرعات وأموال الدولة تبذل على حياتهم الشخصية...»

رأى (رامي) في خالته دائمًا الكاشف المنير للعالم الخارجي، نظراته لها مفعمة بالفضول والشغف، قال بتحسر ونظر معلق بخالته: «هل مات منهم أحد»

رفعت حاجبها قائلة: «الكثير، لكن لم يكترث أحد، تتخيل!»

تدخلتُ هنا قائلة: «ستخيفين الطفل، حرام عليك!»

رد بثقة نافيًا هذا الأمر، بل زادت بأنه مستمتع جدًّا ويحب خالته وأحاديثها، وكنت أحب هذا كثيرًا. خبرتها أن جارتي آتية لزيارتي؛ فقررت الرحيل معتذرة، معللة ذلك بعدم حبها للسيدة ولا ارتياحها. لم أضغط عليها وودعتها، وحين أغلق الباب، شعرت بألم رأسي وكل الأفكار السيئة والحزينة تعود ثانية...)



توقف (ثائر) عن القراءة؛ فقد انقطعت الكهرباء.

أشعل شمعة صغيرة، تنازع لتبقى حية ساعة أخرى بحياتها، قرب يده من النار، ابتسم ثم حرك إصبعه ليخترق النار ويغادرها بسرعة، ثم كررها جيئة وذهابًا، حتى اصطدم إصبعه بالشمع فانطفأت النار بعد أن لسعته.

طُرق الباب، ثم تحرك ببطء، وظهر من خلفه (فادي)؛ يبدو أن (عاصم) لم يغلقه جيّدًا، يحمل شيئًا صغيرًا بيده، ويحمل آخر ضوء للشمس خلفه. استدرك انقطاع الكهرباء فترك الباب مفتوحًا. قال بسرور:

- ألا تريد أن تعرف ما الذي أحمله بيدي؟

حاول التبسم له، لكنه لم يفلح؛ فاستسلم لخواء نظرته قائلًا:

- أحضرت شيئًا لي؟

قدم له الشيء بيده، شيء مغلق بورق الهدايا، فتح (ثائر) الهدية، فإذا به قميص صيفي أزرق اللون، بنصف كم.

ابتلع ريقه ثم قال:

- شكرًا لك، أحب هذا اللون كثيرًا.

تجهم (فادي) جراء رد فعله، قال بيأس:

- لا أعني إحراجك، أنت أخي، فقط وجدت تفضل الملابس طويلة الأكمام، وأعرف أن درجة الحرارة مرتفعة، وأنك تفضل الملابس الزرقاء؛ فكرت أن هذا سينفعك قليلًا، أعتذر.

أمسك (ثائر) ذراعه بسرعة متداركًا الموقف:

- لا لا، أنت لم تخطئ بالطبع، أقسم أنا سعيد بتفكيرك، لكنه ألم الرأس وبعض الأفكار السيئة التي تعذبني، أنت فعلت أفضل شيء لي بهذا اليوم، صدقني.

لم يبتسم، لكنه نظر بعينه متوسلًا، علّ صديقه لا يحزن. حرك عينه وكأنما يقلب الأفكار في عقله، ثم ابتسم لصديقه مقترحًا الخروج سويًا لأي مكان، حتى عودة الكهرباء؛ ابتهج صديقه مشجعًا الفكرة.

بمقهى بعيد، جلسا يحتسيان القهوة، لم يتحدث (ثائر) كثيرًا، لكنه استمتع بقصص صديقه عن عالمه المليء بالفتيات، وفتاته الجديدة التي بدأت تسيطر على قصصه وحياته، كم أنها جميلة، وكم أن وجودها يجعل بعض الآلام هينة.

قال (ثائر) بسخرية: أي آلام يا فادي؟ أنا لم أر رجلًا أكثر حظًا منك»، ثم قهقه.

بادله صديقه الضحك قائلًا:

- وهل يترك الكرب أحدًا؟ هذا وعد الله.

تراجع متعجبًا، ضحك بشدة قائلًا:

- الشيخ فادي أمامي؟ بركاتك أيتها الفتاة الجديدة

حاول أن يصمته قائلًا:

- اهدأ لا دخل لها، أنا أتعلم كل شيء لأبهرهن، أظنني سأتزوج قريبًا وسأصبح رجلًا مسئولًا، ألا تظن؟

ضحك نافيًا:

- نعم، لا أظن، ولا أظن أن هذا شيء يُظن.

ضحكا واستمرا بالحديث حتى أصبحت العاشرة...

عادا للمنزل ثم ودعه صديقه، عادت الكهرباء أيضًا، وعادت الآلام التي قد تناساها. دلف لغرفة أخته متفقدًا حاجياتها، يتلمس ملابسها الهادئة، وشاحها الأبيض على السرير، والذي - غالبا- اتخذ (صالحٍ) رائحته مهدئًا له ومنومًا. غادر للغرفة الأخرى، استلقى محاولًا نسيان كل شيء...

رسالة نجدة وصلته على موقع التواصل، ثم اتصال بالصورة والصوت، ضغط زر القبول مستفهمًا!

صديقه ملقى على السرير، نائم ربما، فتاة ذات شعر أسود كثيف تقترب منه، الكاميرا خلفها تمامًا بالأعلى، لا يعرف كيف ثبتت بهذا المكان؟

شرعت الفتاة تضرب النائم أمامه بيديها بحركة هستيرية وتصرخ بشدة، ثوان واستيقظ من أمامها ثم وقف على السرير وبدأ يحرك ذراعه مثل حركتها صارخًا، وضع (ثائر) يده على شاشة الحاسوب متجنبًا رؤيتهما، ومحركًا يده علّه يصل لزر الغلق. وجف قلبه خوفًا من أن يروه، فلربما يصل أذاهما إليه...

فتح عينه بسرعة، هلاوس جديدة! لقد استسلم لعقله لدرجة أنه أصبح المسيطر، خياله كل مرة يصبح أقوى وأشد رعبًا...

أضاء الغرفة جالسًا على الفراش، يضرب قلبه بعنف، يسحب أنفاسه ويخرجها بقوة، ويطقطق يده ويقبضها بانفعال؛ محاولًا إعاقة عقله عن إيذائه.

استجمع نفسه بعد وقت طويل، عائدًا بالزمن لأشهر مضت...

الخامس والعشرون من يناير

بمنزله الصغير، جلس وصديقه مع أخته، تركهما يتحدثان على مقربة منه، منشغلًا بتأمل لقاءاته مع (بارديس).

تقدم والده نحوهم حين عودته، وجهه غاضب لا يبشر بالخير، قال بغضب:

- يا أيها الصالح أنت، حدثت والدك ولم تبشرني نواياه بالخير أبدًا.

وقفوا ثلاثتهم اضطرابًا، قال (صالح) محاولًا تدارك الأمر:

- وما الذي حدث يا عماه؟

انفعل الوالد ذاكرًا بعض النقاط الخاصة بتفاصيل الزواج والتي بدت حججًا واهية للجميع، ثم توعدهم بأن الأمور إن لم تتغير، سيلغي هذا الأمر برمته، وستتزوج ابنته من يرضاه؛ حينها تركتهم (حنان) راكضة لغرفتها، أوصدت الباب بإحكام.

استمر الرجل بشجاره؛ ابنه يحاول التهدئة، وصديقه يحاول الوصول إلى حل، وانتهى الأمر بأنهم سيفكرون بالأمر مليًا حتى يرضى الجميع . . .

رحل (صالح) وبقي (ثائر) والذي عامله والده كأنما رحل مع صديقه. طرق الوالد الباب عدة مرات؛ لم تفتح الباب أو ترد بداية، لكنها أذعنت لإصراره، ولأول مرة يرى (ثائر) هذا، لقد احتضن الوالد ابنته الباكية بشدة، قال بصوت هادئ:

- أنا خائف عليك فقط، أقسم خائف عليك.

تشتت عقله قليلًا، أيعقل أن يبدو لين الرجل قسوة؟ أم أن القسوة تستحيل لينًا حينما يكون للرجل حاجة يقضيها؟ لم يأمن ما حدث، وربما فرك عينه أكثر من مرة. تلفّت حوله فإذا بالهدوء التام، يتخلله نحيب أخته وهمهماتها، وكأنَّ العالم قدّس هذه اللحظة التي لا يحسبها ستتكرر . . .

الأول من فبراير

في المقهى أمام السكن، استأذن (ثائر) من رب عمله؛ ليسمح له بقليل من الوقت؛ فقد رآها مقبلة للطاولة المعتادة، تجول بناظريها في المكان باحثة عنه؛ اقترب منها بتؤدة مبتسمًا، أمسك ظهر المقعد قائلا باستعراض:

- أتسمح الآنسة الرقيقة أن أشاركها المجلس؟

ابتسمت مشيرة بيدها إلى المقعد، جلس بسرعة قائلًا:

- أعلم أننا لم نلتق منذ فترة؛ لكن الأمور بالمنزل معقدة، تدعوني المصاعب إليها دعًا.

اتزنت نظراتها المثبتة بعينه، قالت بجديّة:

- لا أظنك ستستسلم، أعتقد أنك قوي، قوي لدرجة أن تسكن كل تلك الآلام عينك وتبتسم بوجهي.

زفر بهدوء قائلًا:

- ربما أنت تمنحينني هذه القوة، لست بقوي، أبدًا لست.

تراجعت بظهرها رافعة بصرها، تأملت السقف قليلًا، عينها الضيقة أوحت بكثرة الأفكار داخلها، والتي أجبرته على الصمت احترامًا لها، عادت ببصرها قائلة:

- أنت ثائر، أي رجل يثور على كلِّ شيء.

تراجع كذلك ضاحكًا، قال:

- أنا لا أعرف من اقترح اسمي هذا، والدي ليس برجل مثقف؛ ولا أحسب والدتي كذلكز

- هل أسموك بعشوائية؟

- لا، طفل دُفن بنفس يوم ولادتي، أو قبيلها، لا أدري! أُعجب والدي بالاسم فأطلقه عليّ، وقد نال إعجاب والدتي

سحبت شهيقًا حاملًا بعض الكلمات التي كادت تفصح عنها، قالت بابتسامة مبتورة:

- من الجميل أن يكون لاسمك معنى قوي؛ أما أنا فلا أعرف ما الذي عنوه بباراديس؟ قيل إنها الجنَّة، أو النعيم بعد الموت، لكنه شُوّه قليلًا كما ترى، كأنني مكان مشوه ظاهره جميل، أظنه مزيج بين إرادة والديّ.

تعكر صفو ابتسامته قائلًا:

- نظرتك سوداوية، تنظرين للعيوب فقط، بالناس وبك، تهربين من الجميع.

- واقعية، لا أستطيع حماية نفسي من الناس سوى بتوقع الأسوأ من كل فرد، أحيانًا أخاف من ذاتي حتى.

أطرق قليلًا، ثم نظر إليها بحماس يصطنعه:

- لدي خبر جديد قد يروقك.

وكأنَّه نجح باستمالة شفتيها فتبسمت؛ أردف مبتسمًا:

- حصلت على وظيفة، ليست الأفضل لكنها وظيفة.

ابتهجت، ولما ازداد طرق قلبها سعادةً خافت من هذا الشعور الغريب، تراجعت ابتسامتها متسائلة:

- هل ستستمر بها؟

انطفأ حماسه متعجبًا:

- لم تعرفيها بعد!

ابتلعت ريقها الذي تجمع بحلقها متراجعة، ناعتة نفسها بالغباء على ما قالت، ومغمضة عينها.

فتحتها بشفقة متحدثة بصوت خجل:

- ما هي الوظيفة؟ أعتذر.

- بالطبع لا داع للاعتذار، سؤالك بمحله، أنا رجل تدعوه المصائب إليها دعًا، ما الذي يؤكد لي أنني سأستمر دون مصيبة تمنع قدمي من المجيء هنا ثانية؟

- هنا؟

ابتسم ثانية حينما تبين استعادتها الانتباه:

- نعم، أصبحت نادلًا، أعمل بالفترة المسائية هنا وأحيانًا الصباحية أيضًا؛ كرمًا من رب العمل.

اتسعت ابتسامتها كأمٍّ فخور بابنها، تأملت الأسفل قليلًا وكأن عينها ترى شيئًا لا يراه الآخرون. جاذبًا انتباهها ثانيةً قال بصوت مرتفع نسبيًا:

- لقد تفحصت صفحتك الشخصية بأحد مواقع التواصل.

ابتسمت له دون رد.

أحيانًا تصمت كمن يقصد إرباك الذي أمامه أو ملء قلبه بالظنون الغريبة والتساؤلات؛ لماذا تتحدث حينًا وتصمت؟ لماذا تبتسم كمن أقبل على الحديث ثم تتراجع بعد دقيقة؟ مارت الأسئلة بعقله العاصف، حتى تجرأ لسانه أخيرًا:

- لماذا تصمتين؟ اشتقنا لصوتك.

رفعت نظرها إليه مبتسمة، فأردف بلا وعي:

- اشتقتك.

وقفت فجأة قائلة:

- عليّ الذهاب لقد تأخرت.

كعادته فُزع واقفًا أمامها:

- علام؟

- على اللاشيء، فقط عليّ الذهاب، أراهن أننا سنلتقي ثانية، وأنك لن تكمل العمل.

ثم رحلت مبتسمة مخلفة رجلًا عقله مسجور...

كلُّ شيءٍ كالنَّار داخل عقله، لا يعرف من يصارع؟ أو ماذا؟ أالذكريات، الحاضر، المستقبل الذي يخافه؟ فقره لا يزال، تنطق جيوبه به مشتاقة للمال، متوجسة من المستقبل الذي يشبهها، فارغ تمامًا! أما الماضي الممتلئ، فيترك سكاكينه تنغز القلب بلا رحمة، بلا اكتراث للأنين المستمر، الأنين الذي ينبع من أحد غيره، يحيا بعقله لا جسده أو روحه. هدأت أنفاسه قليلًا وهدأ الصخب المشتعل بروحه، قرر تناول كأس من الشاي، جثث محاولًا تنفيذ نيته، حتى أصابها.

عاد لفراشه بعقلٍ خاوٍ ويدٍ ممسكة الكأس، ينظر للفضاء الممتلئ بنثير الغبار والذرات المتراقصة على ضوء المصباح الخافت، أنهى نصف كأس الشاي واستلقى ثانية، علّ هذه المرة تنجح التجربة، ربما استطاع الشاي إلهاء معدته وعقله؛ إذ اعتبر خواء المعدة سببًا لما يعانيه أيضًا.

شعر بما يقيّده فجأة، جسده لا يتحرك، ظهره ملتصق بالفراش، أطرافه لا تتحرك، يحاول الصراخ كأنَّما ينتصر لعضلاته المقيدة لا يستطيع، يرتفع جسده متشنجًا محاربًا بقوة تكفي لتحريك سيارة نقل كبيرة، لكنه ارتفاع محدود يقاس بالسنتيمترات، كل شيء حوله يهتز، لا يعلم إنْ كانت الرجفة ببؤبؤ عينه أم أن الغرفة تهتز، بل

الأرض ثابتة، الأشياء تهتز، الوجوه تظهر، أم أنه فقط يتخيل، لا يستطيع قلبه الصراع أكثر، لا تستطيع رئته الضعيفة المطالبة بالهواء الذي تحتاجه خوفًا مما يحدث ووهنًا.

دقيقتين من هذا الشيء الذي لا يعرفه ثم توقف كلُّ شيء، عاد لوعيه الذي لم يفقده، أنفاسه أعلنت انتصارها بسحبها أكبر قدر من الهواء المليء برذاذ الموتى حوله، قلبه صار يضخ الدم مهنئًا الخلايا بعودته قويًا صلدًا.

هدأ كلُّ شيءٍ ثانيةً وارتخى جسده، أمسك مفكرة (عاصم) يكمل ما شرع به، لكنه خر نائمًا قبيل الفجر كمن ترك عذاب الصحو لتلتقطه الكوابيس اليومية.

××××

الثالث من فبراير

جلس مع صديقيه بالمقهى المقابل للسكن، يتقلب ناظره يمنة ويسرة بحثًا عن صدفة قد تجمعهما، بينما الأحاديث والضحكات لا تنقطع يين الآخرين.

قال (فادي) مقاطعًا بحثه:

- هل عوقناك عن عملك أيها السيد؟

انتبه مجيبًا بكلمات سريعة، كمن يخفي بلسانه أحاديث العين:

- أنا؟ لا، لا أعمل الآن تعرف هذا، انشغل بالي قليلاً.

غمز بكر لثالثهما ثم قال:

- أم أنَّ هناك شيئًا لا نعرفه؟

- أي شيء؟

- ربما صديقنا يحب ولا نعلم.

ارتبك لكشف أمره إثر حيلة صديقه، قال متلعثمًا:

- هل قال لك أحد شيئًا؟

قال (صالح) محاولًا إحاطة صديقه بهالة من الراحة؛ إذ تصبب عرقًا واهتزت جلسته وتطايرت نظراته هربًا منهما، ومقاطعًا للعبة (فادي):

- يمكنك أن تخبرنا عنها وقتما تشاء، نحن صديقاك لا داع للقلق.

استجمع نفسه، أو هكذا هيئ له؛ فقد اجتمعت عروق رقبته على الهرب خلال جلده الأسمر، وتمسكت يده بالأخرى مانعة الرجفة، ثم قال بصوت متهدج:

- كيف هي حنان؟ أظنها سعيدة كثيرة معك.

تناقلت عينا (صالح) بين الصديقين قبل الإجابة:

- أنا أدبر أموري قدر الإمكان كي أرضي والدكما، كلما دبرت أمرًا أعاقني بشيء جديد، أخاف أن أفقدها، وأسعد بوجودها.

- » عليك أن تهتم بجزء السعادة فقط « قال (ثائر).

تعجب متسائلًا:

- كيف؟

- تعلم أنني في وضع مليء بالمشاكل، وأتمنى لو تختفي، لكن أتعلم ما خوفيٍ الأكبر؟ أن تذهب ويجلب القدر مصائب أعظم وأشد فتكا؛ لذا أستمتع قدر المستطاع بعوائقي الحالية، قد أفتقدها يومًا ما.

قالها وقد اختفت رجفته تمامًا واستقر صوته.

قال (فادي): «يا لكما من بائسين! ستفسدان مزاجي». ابتسما ثم انقلب الحزن لسخرية وضحك شديدين.

الرابع من فبراير

(ثائر) و(صالح) يتقدمان بتؤدة نحو منزل المقابر الصغير، رأى والده على مقربة يحدث (عمران) كمن يتوسل:

- لا بد من وجود حلٍّ آخر، أنت قادر على هذا، أرجوك.

كأنَّ الكفيف انتبه لمجيئهما فنبهه بـ(صه!) أدركها (ثائر). هم الكفيف بالرحيل، والتف الوالد الضعيف منذ ثوانٍ ليصبح الرجل القاسي ثانية، تفقدهما باحتقار كأنَّ رثاثة الثياب تسمهما بدلًا عن ثيابه الملطخة بالغبار إثر الدفن.

قال بتأفف:

- ألا تخبرني قبل مجيئك؟

رد (صالح) بخجل:

- أعتذر لقد...

قاطعه:

- أعني الآخر، كل منكما له حساب مختلف عندي، أو عقاب إن شئتما الدقة.

صمتا كل منهما يحمل حنقه ويبتلعه، فأردف الشيخ:

- أيها الأفاك، ألم تقل أنك ستنفذ كل ما أرغب؟ أين المنزل الكبير الذي طلبته؟ ابنتي تستحق الأفضل، وإن لم تفعل خلال أربعة أيام ستنتهي هذه الخطبة.

فزعا وصاح (صالح):

- عمّاه تعلم أنني أبحث، وأنني سأقترض من البنك وبعض الأصدقاء، أرجوك أمهلني أو قدّر حالتي على الأقل.

تناقلت نظراته بينه وبين صديقه غوثًا به، وما لبث الصديق يبدأ كلمات الدفاع حتى قاطعه الأب مهينًا:

- أتتذرى بهذا المهين؟ تتذرى بابني الفاسد العاق؟ أنت أيضًا مثله، الفرق أنه أتى معك اليوم لأشفق عليه ببعض النقود.

ثم أخرج ظرفًا أعده مسبقًا ورماه بوجه ابنه فسقط أرضًا، تكاد قدمه تنهار ويده تمتد للمظروف بكل انهيار وضعف، لكنه آثر التظاهر بالقوة، لمعت عينه دامعة فأدار وجهه بشموخ لم يعهده هو قبل والده، نادى (صالحًا) أن يتبعه، والذي استدار قبل النداء.

صاخة من الوالد باسم (حنان) أوقفتهما، وصوت خطوات متخبطة انطلقت من داخل المنزل، لتخرج الفتاة الخائفة تلف الوشاح لتغطي رأسها استعدادًا لوجود أي رجل، رأت (صالحًا) فنست خوفها وتبسمت بقلق؛ فبادلها مطمئنًا أن شيئًا سيئًا لن يحدث.

تنحنح الأب بغضب فالتفوا له، قال بصوت مخيف:

- هذا الرجل الذي فضلته عليّ، أمامه حتى الثامن من الشهر، إن لم يحضر ما أمرته به فلا أنت له ولا هو لك وغير مسموح له بالاقتراب من مسكننا إلا إن كان جثة.

بهتت الفتاة التي قد قارب الأمل من شرفات قلبها، ونزل بها الحزن الشديد، لم تتحدث لكنها ركضت للداخل بلا صوت، بلا أنين حتى.

قال (ثائر) غاضبًا:

- لماذا تفعل هذا بها؟ هل أنت رجل مريض؟

أمسك (صالح) ذراعه مهدئًا، مشيرًا إلى عيب ما قال؛ قال الوالد كمن وقعت بحقه إهانة عظمى:

- هل يدافع عني هذا اللاشيء؟ كيف تسول لكما نفسكما أن يضع كل منكما نفسه في هذا المحل؟ ارحلا، خذ النقود وارحل أيها الفاشل، وأراهنك أنك ستبكي بعد رفدك من العمل خلال أيام.

صرخ (ثائر): «هذا حلم لديك». واستدار مغادرًا؛ بينما انتبه (صالح) لهمسات الوالد: «بل واقع يا بني، للأسف!»، رمقه نظرة شائكة ليرى ملامحه القاسية التي أنكرت ما خبرته إياه أذناه.

خلال أيام نأى (صالح) عن الجميع، حتى (حنان) والتي اجتهدت للحصول على عمل لمساعدته.

هاتفه رن، وجد اسمها ولم يعرف أيرد أم يبقى غارقًا في خجله وكربه بعيدًا عنه، لكنه بالنهاية استسلم وأجاب بوهن:

- .كيف حالك يا حنان؟ اطمئني لن أترك الأمر بهذه السهولة.

أجابته بحماس تعجب له:

- اسمعني جيدًا لقد دبرت مبلغًا سيساعدنا، وسأعمل عامين بنصف راتب لتسديده.

تنبه قلقًا وقال:

- أي مبلغ؟ وأي عمل هذا الذي يقرض الموظف مالًا في يومه الأول؟ بل قبل يومه الأول.

خبرته أن امرأة مسنة تعرفت عليها بإحدى الصيدليات؛ حيث جالت باحثة عن عمل يساندهما أمام رغبات الوالد العنيد، وهذه المرأة رحبت خاصة عندما علمت القصة. وهي امرأة بلا أبناء، لديها الكثير من المال لتقرضه لمسكين مثلهما، وقد اقترحت هذا الشأن حينما علمت بتغير الاتفاق وصعوبته على الشباب الأصغر بالسن.

بعد الكثير من القلق وافق (صالح) على شرط أن يمضي هو وصل الأمانة لا هي.

الثامن من فبراير

اجتمع الأربعة أمام الوالد، (ثائر، صالح، حنان، فادي).

تفحصهم الوالد بقلق وغضب؛ فقد بدا على وجوههم الثقة والهدوء، قال (صالح):

- عماه، لقد أحضرت كل ما طلبت، سنذهب غدًا لرؤية المنزل وتقرر إن كان مناسبًا.

تجهم قليلًا وسط حيرتهم، ثم قال متلعثمًا:

- لا، الغد مستحيل، علينا الذهاب اليوم، هل اتفقت أم ماذا؟

جال بنظره بين الجمع قبل إجابته الحائرة:

- أنتظر إشارتك، لم هذا التوتر؟

وقف الأب مستديرًا، يخفي وجهه عنهم كأنما يخفي أسراره التي ستقع أمامهم، ثم عاد بحجة خطرت بعقله:

- لا أريد أن أزوج ابنتي لرجل مدين لغيره، كيف أحضرت المال؟ أخاف على ابنتي من الذل.

كاد يصرخ لكنه تماسك، ثم خبره بهدوء قدر إمكانه أن هذه استطاعته وهو يعلم، ويعلم أنه لجأ للديون لأجل ابنته، لكن قلبه غير المطمئن لم يرح من حوله.

وقف أخيرًا قائلًا:

- اسمعني جيدًا، لن أورط ابنتي في حياة سعيت طوال عمري تعويضها عنها، أنا لا أثق بك، يمكنكما اعتبار هذه الخطبة منتهية حتى بعد الغد، إن أثبت لي أنك تستحقها ستأخذها.

ثم وقف مغادرًا المجلس، لكن (صالحًا) لم يقبل؛ هتف بغضب:

- ولماذا تنقض عهدك؟ أنت تجعلني أفعل المستحيل، لا أفهم لماذا لا تحبني؟ كيف ترى أن رجلًا غيري سيحب ابنتك مثلي؟ كلما ظننت أنني رأمت الصدع تصدعت علاقتنا أكثر، اعذرني لكن كلامك غير مقبول وابنتك لن أتركها، ولن أخلع هذا الخاتم من يدي.

هتفت (حنان) واقفة:

- أنا أيضًا يا أبي، سامحني.

-

نظر لابنته مشفقًا وكأن سهمًا اخترق قلبه، ركضت لغرفتها الصغيرة ووراءها الوالد، بينما غادر الأصدقاء مساندين أوسطهم، منكس الرأس منكسر القلب، هائم على وجهه، يتحرك أمامه الطريق وتتحرك قدماه تبعًا لحركة صديقيه دون وعي منه، كأنما يشاهد مشهدًا ليس جزءًا منه، هذه أقدام غيره، طريق غيره، عينه ترى الحياة وكأنها ليست حياته، هو سجين، سجين لا يرى نفسه، يرى جسده وأجسادهم، يسمع صوت الجسد وأصوات أخرى، لكن لا أحد هو!

ظهيرة اليوم التاسع من فبراير

هاتفه يصرخ ويوقظه فزعًا، هاتف أخته، أجاب فإذا بشبح صوت والده، همهم ببعض الكلمات التي لم يفهمها، حتى تحول الصوت لشيخ آخر (عمران) والذي قال باقتضاب:

- البقاء لله، أحضر صديقك وتعاليا على الفور

تساءل من يقصد؟ لا أحد هناك سواها؟ أيمزح؟

وصل الأصدقاء الثلاثة وجهتهم هرعين حتى تأكدوا من مصابهم الفج، لقد توفيت حنان...

ظلال السحاب تملأ السماء معلنة الحداد، ومطلقة البكاء على العالم، لم ينبت الأزهار بالقلوب، بل أنبت الشوك يمزق الأفئدة،

يرتمي الرجل لإثره جاثيًا وهنًا ينازع الموت الوهمي، ينازع الموت الذي اهتم بغيره دونه، الذي اهتم باختطاف صغيرتهم دونهم...

استيقظ بغصة تخنقه، جسده يتصبب عرقًا، أغمض عينه مقاومًا ألم الرأس، سمع صوتها توقظه، فتح عينه فرآها، أخته تبتسم له كعادتها ثم استدارت دالفة غرفتها الصغيرة، أمسكت عصا والده المسندة على الحائط فحركتها حتى سقطت، ثم اختفت داخل غرفتها. هرول للغرفة بقوته المحدودة إثر كوابيسه، بحث عنها حتى بالأماكن الضيقة كأنها فراشة صغيرة مختبئة، حتى أدرك أنه يهلوس فعاد أدراجه لفراشه غير المريح.

كوب الشاي بجانبه نصف ممتلئ، بارد ملوث بفعل الأتربة قليلًا، التي تسبب السعال لكل من يمر بهذا المنزل، لم يمنعه هذا من ارتشافه مرة أخيرة تقزز منها، وقرر التخلص من هذا الشاي الفاسد، وقبل أن يتحرك وقعت عينه على المفكرة، لم ينه قصته الأخيرة بعد، قصة المرأة الشابة، جلس متناسيًا نواياه البسيطة، مذعنًا لسطوة الفضول والقلق.

(كدّت الأم أيامًا قليلة تالية، تاركة ابنها مع أختها أو جارتها أغلب الوقت، تسعى بكل جهد تستطيع لكسب العيش، الكوابيس تطاردها نهارًا بالعمل ومساء بالفراش، خائرة القوة ليس لديها وقت للبكاء أو الاستسلام، أو حتى قراءة الكتاب المهدى من الجارة بتمعن.

خلال هذه الأيام جمعت مبلغًا لا بأس به، تبعًا لنصيحة الجارة التي ساعدتها على العمل وتوفير كل هذه الأموال بوقت ضئيل.

الثامن من الشهر

بعين ذابلة وجسد هزيل يستتر خلف عباءة بألوان باهتة، طرقت المرأة الباب بثقل، فتحت الجارة مبتسمة مستندة على عصا خشبية، قالت: «مستعدة»

أطرقت قليلًا ثم قالت بحزن بالغ: سيكونا بخير؟

عرضت عليها الجارة الدخول، جاست قليلًا ثم دلفت بتؤدة، قالت الجارة:

- اسمعيني جيدًا، أمنّت لك راتبًا مرتفعًا جدًا والمعاش أيضًا مرتفع، أفضل من موظف ذي خبرة ومؤهلات عليا، والبيت المأجور أصبح لك ولأختك وابنك، كل شيء سيكون بخير، تعرفين أنه لا عودة، ليس هذا وقت التراجع.

عند عودتي للبيت الصغير، علمت أنَّ كلَّ شيء محدود، المرأة التي أبرمت هذا العقد لم تكن أنا، ربما ظاهريًا، لكنها أوقعتني ببئر لا شمس له، خررت ساجدة أبكي، أبكي ذنبي وأطلب عفو الله، أطلب العفو عن ذنب لم أتوقف عنه بعد، أتقبل التوبة عمًّا لم نتب عنه بعد؟ وإن كنا نرجوها ولا نستطيع التراجع، أيحسبها الله توبة؟

يا إلهي فعلت هذا لأجلهما، خوفي عليهما أكبر من القدر الذي تعنيه حياة امرأة تشبهني، أنا التي لم تغرني الحياة يومًا، بل ليس بها

ما يغري أمثالي، وأنا التي خفت الموت دومًا، الآن أخطو إليه بقدمي الراجفة، وقلبي العاصي المرتعب، سامحني يا اللّٰه، سامح قلة حيلتي وإيماني.

تكومت فوق فراشها محتضنة ذاتها بعد ساعات من احتضان صغيرها، والذي بدوره انزعج من هذا القرب وفضل اللعب حتى النوم، تحاول النوم، لكنه يرفضها، أو يرفضه عقلها الذي ينتظر معجزة تغير كل شيء لآخر لحظة، تدعو اللّٰه أن يغفر اللّٰه ويحفظ الصغيران، بكت، بكت حتى الصباح، حتى ضاقت أنفاسها وكاد قلبها ينفجر ألما.

صباح اليوم التاسع من الشهر

ألقت الجارة العصا جانبًا بإحدى جنبات الشقة، متجهة لمنزل المرأة الملتاعة، طرقت الباب كثيرًا حتى فتحه الصغير، أمرته بإيقاظ والدته على الفور لأمر جلل، دقائق أخافت الطفل بشدة، الأم عينها جاحظة، تنظر للفضاء كأنه وحش مهيب، لا تسمع ولا ترد، هرع الولد للجارة فدلفت للشقة بسرعة، ثم صرخت ليجتمع الجيران، وتعلن وفاة السيدة بالنوبة القلبية).

انتهى من القصة ومن كوب الشاي السيئ، نظر حوله كأن شيئًا من الفراغ سيجيب تساؤلاته، انتهت القصة ولا قصص بعدها، فقط ردود الشاب عليه؛ تفقد آخر الصفحات، لا شيء.

وقف متذكرًا أخته التي مرت منذ قليل، هل كانت حلمًا؟ تفقد المكان ثانية حتى كاد يتعثر بعصا والده الملقاة أرضًا، الدليل على واقعية هلاوسه. رفعها متفقدًا، كأنما يشم رائحة أبيه بها، بل وكأن أباه يراقبه بها، اهتز جزء من العصا بهشاشة؛ معلنًا تصدعه أو ربما كسره، حاول إلصاقه ثانية، لكن العصا أصبحت كالنصفين، ولا يبدو أنه السبب، رغم ذلك فقد حاول إصلاحها مخافة معاقبة والده، حتى تذكر أن لا أحد سيزعجه وإن كسرت فارتاح قليلًا؛ شعور الذنب فقط هو ما يخالجه، وهو ما دعاه للتعجب، من كان يظنه سيحب الاحتفاظ بشيء يخص والده؟ هل أحبه؟

شرع انزعاجه من العصا يزداد؛ فأصبح تحكم يده العصبية أضعف؛ مما أدى لفصل الجزء العلوي كلية، قرر البحث عن أي لاصق قريب دون تشويه العصا التي أصبحت فجأة ذكرى قريبة لقلبه، وبينما ينزع الطرف وجد ما يشبه النخاع اللين الذي تلتف حوله الفقرات العظمية، نزعه بحرص فاحصًا، ورقة ملتفة داخل العصا، مارت وجالت الأفكار برأسه، من وضعها؟ ومتى؟ (عاصم)؟ احتمال قوي؛ يشاركه المسكن ويتحرك كيفما شاء، أقصة جديدة أخفاها؟ وكيف يجرؤ على كسر عصا والده؟

احتقن وجهه غاضبًا مادًا الورقة أمامه ومتوعدًا شريك السكن الجديد. لا يشبه الخط ما يقرأ عادة بمفكرته، خط مألوف، اسمه مكتوب بخط يعرفه جيدًا، أدرك صاحب الخط فجأة قبل شروعه بالقراءة، والتي تبلورت كذبذبات صوتية تشبه كاتبها :(ابني العزيز ثائر، أشتاقك، أنت بعيد، وأعلم أنني أبعدك عني، ولو أن الأمر بيدي

لاحتضنتك كل يوم، لهربت بك وأختك لمكان قصي، لكن لا وقت بني، أتمنى أن تكون بخير الآن، ألا تكون تأخرت، ليس لدي الوقت الكافي للكتابة والشرح، لكن احترس يا بني، الأدلة دائما أمامك، الإنسان مخير إلى حد معين، ما إن يختار حتى يصبح مسيرًا للنهاية، لا تراجع؛ أحسن الخيار!

أعلم أن شباب هذه الأيام حمقى؛ دائمًا أمامهم الحقيقة، لكنهم يتغافلون عنها عنوة.

وأرجو منك ألا تتغافل؛ لأنك حين تتغافل وحين تخطئ اختيارك، ستخسر ما هو أكبر من حياتك وسعادتك. نجاحك يا بني لا يعني رضوخك لما حولك وللمجتمع، بل إنَّ تمردك أول خطواته، والتصميم والمثابرة ثانيها، لا تتوانَ بني. تجزى كل نفس بما كسبت، ادع لي، وسامحني).

أسند العصا إلى الحائط وطوى الورقة واحتفظ بها داخل الكومود الصغير بجانب السرير، بعد قراءتها ثلاث مرات تقريبًا. تشتت عقله كلية، عاد الطرق على هيئة تساؤلات، متى كنّ والده هذه الورقة؟ هل أحبه حقًا؟ بالطبع لا، ربما أحدهم قلّد خطه، من؟ لا يمكن.

شعر بضيق بأنفاسه فجأة أسقطه على فراشه جالسًا، تحسس بيده زر قميصه العلوي الذي يخنقه، حرره لكن شيئًا آخر بداخله هو ما يخنقه، شيء لا يمكن إيجاده يقبض على عنقه بإحكام، يريد أن يبكي، ربما حظي بأوقات وحدة تهرب بها دموعه من قبل، لكنه لم يستغل أغلبها جيّدًا، والآن لا يمكنه، عينه تؤلمه، يشعر الماء سبّب انتفاخًا غير مرئي أسفل جفونه؛ على إثره ازداد ألم الرأس، بل اهتزاز

الرأس، أحكم يديه على رأسه ضاغطًا كأنما يحجّم الألم ويجبره على التوقف، تكوم نائمًا على جنبه الأيمن، ينتفض جسده برغبته ودونها، يركل بقدمه الهواء، تتكرمش ملامح وجهه، يئن، ويصرخ، يسمع ضحكات أخته، والده، (بارديس) ، يسمع أغنية بصوت فتاة لا يعرفها، الصوت عن يمينه وعن يساره، لا بل نابع من رأسه، عينه تصارع لتصرخ هي الأخرى لكن هيهات، وقف أخيرًا متحديًا ألمه، أحضر سكينًا من مطبخه الذي سُميّ هكذا تكرمًا منه، شمّر عن ساعده الأيسر المشوه المرتجف، عقله يحدثه: (الحركة داخلي لا تهدأ كأنَّ الروح تحاول الفرار، أنا لا أمزق يدي لتعذيبي، بل إنني أفتح المعبر كي أطرد الآلام)

بدأ بخط عرضي مستقيم بعد المعصم مباشرة، غرز السكين بجلده وكأن ألمها غير موجود، ضغط بقوة مناسبة منتظرًا شعوره بالألم، مستمرًا بالحركة الدقيقة التي تترك جلدًا ممزقًا تتسرب منه قطرات الدماء، تجاوز بعض الملليمترات ليسمح للدم بالحرية، ثم فعلها ثانية، وهكذا حتى وصل لربع يده الأخير، بينما لم يرتح بعد بشعوره بألم جسده وانتهاء ألم روحه؛ ضيق المسافة للنصف والثلث حتى يتسنى صناعة أكبر عدد من خطوط الدماء الملطخة ليده.

يداه ترتجفان، بل تتشنج يده اليسرى خاصةً، كأن أعصابه تستغيث من أفعاله بها. هدأت الحركة داخله، هدأ كل شيء، حاقُ الجوعِ وروحه الثائرة تغذيا عليه فأهلكاه، أنفاسه تهدأ وتصبح أصعبَ، قلبه ينهار، ونظره يتضارب، يده المدماة تتضاعف، ثم تهدأ لتصبح يدًا لا يعرفها، حاول التركيز، هذه ليست يده، يد امرأة بيضاء معلق بعض المحاليل لها، وتنزف إثر حقنٍ خاطئ من ممرضة رعناء.

اعتدلت الرؤية وظهرت يده المشوهة ثانية، ربما الصورة غير ثابتة، وعينه بالكاد مفتوحة وترى، لكن رؤية يده شيء مطمئن.

لم يدم الاطمئنان كثيرًا؛ أغلقت عينه فاقدًا الوعي، وربما مبصرًا أكثر مما يستطيع...

(ماذا أفعل هنا؟ أبي؟ هل تسمعني؟ أتحرك تجاهه لكنه مشغول بدفن جثة جديدة، جثة امرأة، أقترب منها، لا أحد يمنعني، لا أرى شيئًا منها سوى الكفن، أُدخلت وانهار التراب، ثم أظلم كل شيء، الهواء أقل من الطبيعي، الرائحة حولي عطنة تزيد من اختناقي، أحاول تحريك يدي لأبعد هذه الكتلة عن فمي وهذا الشيء عن أنفي، لكن يدي مقيدة، ماذا يحدث؟

وكأن تيارًا سرى بعقلي تذكرت كل شيء، أنا ثائر، وبنفس الوقت، أنا المرأة الميتة! حاولت الصراخ، نبذ هذا القطن عن فمي، بلا فائدة، يبدو أنني سأموت بموتها، أو ربما يحدث شيئًا، غير هذا، مهلًا، أنا لا أختنق، هناك رائحة أخرى، أعرفها، رائحة المشفى.

أغمضت عيني وفتحتها بفراشي الضيق أخضر اللون، وقد كنت امرأة تحب الأخضر كثيرًا إلى أن جئت هنا، ووجدت ملابسي وكل ما حولي أخضر، كأنه الأسود الجديد.

بينما أتحرك أنا تحركت الإبرة وسال الدم على يدي، صرخت لتسمعني الممرضة، ورغم صوتي الوهن، إلا أنها بطريقة ما جاءت راكضة، معتذرة أولًا؛ لكن حين تبينت غضبي ادعت أنه خطئي أنا،

كنت أكره التعامل بكل مكان في المشفى، ولكنها أكثر رحمة بي من عالمي وحياتي السيئة.

منذ ستين سنة جئت زائرة بهذا العالم القبيح، لأم وأب جادين، بيت عسكري كما يقولون، إخوتي لم يحبوا هذا البيت قط، لكنني فعلت على عكس الأطفال، رغم أنني لم أفقد حناني قط، إلا أنني ولدت منضبطة. لم أحب، لم أعرف سوى أن المراهقة للفتيات عديمات التربية، لا كما يقول المربيون الآن إنها فترة طبيعية ومسمى لمرحلة ما، امتزت بالجمال الذي يأسر الشباب حولي، وجديتي التي تقصيهم رهبة من رد فعلي العنيف، في مجتمعنا العين الزرقاء تعني أن الفتاة مكتملة الجمال؛ لا ينظر لشخصيتها أو هواياتها أو حتى باقي ملامحها، وكنت أنا هي، الفتاة الكاملة الغامضة للغير.

حين أكملت العشرين تقدم لخطبتي رجل من مستوى يشبه مستوى عائلتي العالي، وافق والدي ووافقت، لا أنكر أنني احتفظت بشيء من أحلام الفتيات خلف وجهي المتجهم وصوتي القوي، أحيانًا كنت أتمنى أن يحبني زوجي، ولا أعلم عن الارتباط سوى أنه الزواج طبعًا ليس كهذا الزمن، تمنيت أن نكون عائلة منضبطة، لكن لا مانع من أن يحضر لي الورد، لا مانع أن يشتاقني، ولا مانع أن أتدلل أيضا؛ إذ ما المانع؟

تمت الخطبة وخلال عامين من الخطوبة الروتينية الخالية من المشاعر، من طرفه على الأقل، تزوجنا، زواجًا مكلفًا، حسب زمننا أيضًا، حضرته بعض الطبقات المحترمة.

معاملته الرسمية استمرت، حاولت استثمار مخزوني الأنثوي كالدلال وغيره، لكن صوته وقوته كانتا تصدانني عن فعل أي شيء، وهذا ما جعلني أوجه حناني المكلوم لصغيري الوحيد، دللته أكثر من محاولتي الحفاظ على الانضباط، فكانت قسوة زوجي تزداد، وحسبي أن صغيري يضحك معي ويحبني.

سنوات مرت وزوجي يشح علينا بماله وحبه، وأنا أعمل موظفة كي لا أحرم ابني من مستوى مرفه كما اعتدت واعتاد، سنوات مرت حتى مرض، وأظن مرضه في أصله شُحّه، مات، مات ولم يذكره أحد؛ كان رجلًا عاديًا.

لكنه ترك ميراثًا عظيمًا لي ولابنه، ما ساعدني على تربيته وإدراجه بالتعليم المرموق الذي حلمت به، بعد سنوات كثيرة أصبح طيارًا، أحب فتاة عرفها، ولم أوبخه كما ظننتني سأفعل سابقًا، فرحتي كبرت خوفي، وجاءت صدمتي بابني الذي ابتعد عني، تزوج فتاته بعد أن أفنى الكثير من الميراث، لم نقتسمه لأنني لم أفرق بيني وبين ابني بالطبع، لم أدرك أنه سيمحيني يومًا هكذا!

ابني عبد زوجته، إن كان حرامًا فعليه لا عليّ، حافظت على رباطة جأشي أمامه حتى لا أنهار فيضعف، لكنني أخطأت بتدليله، لم يفهم يومًا أن المغالاة بإظهار القوة ضعف شديد.

لي أحفاد، أحبهم بلا حد، رغم أن رؤيتي لهم محدودة؛ إخوتي ربما يسألون عني لعجز مادي فأساندهم، لكن لا يسأل أي منهم عن صحتي. وحيدة، هذه هي الحقيقة التي حاربت سنوات إنكارًا لها، أنا وحيدة؛ أقمت بنقودي بيتًا لكبار السن أمثالي، أكترث لأمرهم

ويكترثون لأمري، سددت فجوة كبيرة كادت تأكل روحي، لكن روحي المتعطشة للعذاب قررت سقوطي الأشد هذه المرة، أصابني السرطان...

سافرت محافظة أخرى للعلاج على نفقة الدولة، ليس على نفقة الدولة كلية بالطبع، لكنه مشفى للفقراء أمثالي، لدي آلاف محدودة من النقود، لكن ليس لدي مليون جنيه مثلًا أدفعه لعيادة خارجية، ربما لدى من حولي، لكن لا أحد يعيرني شيئًا.

استأجرت شقة بالمدينة الغريبة، هي لأخي، والذي مضى معي عقدًا بمبلغ معين، كأنني امرأة غريبة، وكأنني أمتلك مصدر دخل قويًا. بلا مرافق يحتجزونني حينما تسوء حالتي، أتوسل أن يسأل عني أحد، أبكي وحيدة، لا أحد يراني، الغرفة مظلمة والجميع نائم، من يكترث لهمهمات تتخلل أنين النائمات بالعنابر؟

أرى الهدايا والحفلات، لكن للأطفال، أنظر لهم بعين طفلة تتمنى لو يحبونها الشباب كهؤلاء الأطفال، وأحيانًا أتسلل حاملة حقنتي لمرضة الأطفال الحنونة، تبتسم لي كهم ولا تؤلمني كأولئك الذين ما يعتبون يجرحون يدي بعدم اكتراثهم، حتى يغبر الجرح.

كثيرًا ما أحدث ابني على خجل، أطلب منه إحضار شيئًا ما أحتاجه، كبعض الأطعمة التي أستسيغها، أترك له بالطبع النقود كل لا أذل أكثر من هذا، لكنه ماهر في إحزاني.

الأول من الشهر

استيقظت بالمنزل الصغير بألم سيئ، غثيان، دوار، تقيأت دماء، لم أستطع بالطبع تنظيف الأرض، لكن بصعوبة هاتفت إحدى الممرضات التي خبرتني بوجوب حجزي حالًا، خاصة وحرارتي مرتفعة.

في المشفى، هاتفت ابني والذي علمت أن زوجته بجواره، رده قاس:

- أهلاً أمي ماذا تريدين؟

تلعثمت قليلًا ثم سألته أن يحضر لي بعض الأشياء للمشفى، غضب عليّ صارخًا:

- ما الذي ذهب بك إلى المشفى؟ ألم تكوني بالمنزل؟

ارتجفت دموعي وليس جسدي فقط؛ كمدًا من أفعاله البغيضة، اعتذرت له، ووددت لو أصرخ به أنني مريضة؟ هل أذهب لألهو؟ لكن صوتي اللين هو ما خرج قائلاً:

- حسنًا بني، لا تزعج نفسك، لكن اعلم أني حزينة منك بشدة.

زفر منزعجًا:

- وما الذي تطلبينه مني لأجل هذا؟

استشعرت سخريته، لكنني أجبت بخيبة أمل:

- بعض الأشياء حلها الوحيد ألا تحدث، أستودعك الله بني، يا من أودعتني الوحدة.

ودعني بملل ثم أغلق. حملتني قدمي العجوز لغرفتي بعد حديث مع الممرضات، انتظرت الجلسة التي أكرهها، والتي نفذت في بعد دقائق. سنوات من الألم تمزق جسدي على هيئة محلول، دمي مسجور يصرخ داخل أوردتي المحترقة، الحقن تنخر عظمي لا تخترق جلدي فقط، هذا المحلول يحمل الموت لا الشفاء، كأنه عقاب مختلف عن جرمي الذي لم أذنبه بعد، لماذا أعاقب بكل شيء؟!

صعدت لغرفتي ثانية متكئة على صديقتي الوحيدة التي عرفتها مؤخرًا (رجاء)، لا تختلف عني كثيرًا، بيد أن خذلانها من نوع مختلف، سبقها زوجها وابنها الأكبر بحادث منذ أعوام، لا أحد يقف معها، سوى ابنها الصغير، يزورها حسب قوانين المشفى ساعات محدودة؛ إما أن ترافقها فتاة أو لا أحد؛ احترامًا لنا كسيدات.

هذا الابن ليس له مصدر دخل سوى الوالدة الأربعينية، والتي صدمتها الطبيبة وابنها باقتراب وفاتها، كل يوم يأتي الفتى باكيًا ويرحل محطمًا مشفقًا لحال والدته.

عند عودتنا وجدنا امرأة جديدة بلا مرافق تشاركنا النجوى والضحك الزائف، مبتورة إحدى قدميها، لكنها دائمة الابتسام والتفاؤل، تقربت منا خلال يوم واحد وكأننا أصدقاء مذ وطأت أقدامنا المشفى، مهووسة هي، تدون دائمًا ما عرفته خلال أعوام وكأنه كنزها الخاص، مثلًا أذكر بالثالث من الشهر وهي تحدثني عن الأكواتوفانا، وكيف قتلت به النساء أزواجهن في عصر ساحق، الكثير من السموم والأفكار المريبة التي شغلت بالها، وكيف استخدمت السموم القاتلة في العلاج في وقت لاحق؟

تشاركنا الهموم وتشاركنا أشياء أخرى...

الثامن من الشهر

حالتي سيئة، الصديقتان تدعمانني، ابني بعيد، حتى أنني لا أستطيع تذكره، أتجرع الألم كتجرع الإنسان المحيط دفعة واحدة، حتى لو تجرع نهرًا سيموت ألمًا، ما بالي أنا بكل هذا الألم؟ يسحقني، تتماثل (رجاء) للشفاء؛ سعيدة بذلك، لكن لا أستطيع التعبير، حتى الشعور يبهت، صديقتنا الثالثة ستغادر المشفى بالغد، وسأغادر أنا العالم، لقد ألزمت نفسي بعهد لا أعرف قدر عواقبه لكنني أرجو من الله العفو، يا إلهي أنا مخطئة، مذنبة، لكنني فعلتها بدافع عودتها لابنها، هل أجازى بالسوء؟ أم تغفر لي لحسن نيتي؟ أيمحو ألمي خطيئتي؟ يا إلهي سامحني، لست سوى عجوز ضعيفة، لم يعد لي في الدنيا ما أدركه، ولا أريد أن أفقد ما تبقى لي...

التاسع من الشهر

أنا لا أفهم شيئًا، أنفاسي خافتة، محاط جسدي الثلجي باللون الأبيض، كيف أصبحت هي وأصبحَت أنا؟ لماذا لا أتذكر كل شيء؟

يا إلهي لا، لا أريد ألم الرأس ثانية)...

فتح عينه التي لم تر شيئًا، لكن صوت (ALbarديس) همس له: «هل اشتقت لشيء تمنيته؟ شيء لم يحدث؟ «

رد بلا صوت، أو تخيل أنه رد: «أين أنت؟ أأنت وهم؟ «

شكل شدقه شبح ابتسامة لهلاوسه الجميلة، وسمع أنفاسها تهم بالرد، لكن صوتًا آخر اخترق أذنه، صوت هاتفه.

استوعب ما حدث، لقد فقد وعيه، والآن رأسه مضرم بالأفكار، كل فكرة تنازع لتنتصر وتطفو على سطح الأخريات. حرك يده اليمنى محاولًا الإمساك بالهاتف، بعد دقيقة من الحركة التي طالت جسده كله كي يصل، أمسك هاتفه، ضوؤه الشديد لم يكن كشدة الضوء خارجًا، والذي جعله يدرك أنه لم يمض الكثير على فقدانه الوعي.

رن الهاتف المزعج ثانية ليرد بصوته الهزيل، فيجيبه (صالح):

- لماذا لا ترد؟ أنسيت العمل؟ تعال الآن وأنا سأسبقك لدينا الكثير من التحضيرات...

لم يسمعه جيدًا، قال:

- هل... أيمكنك المجيء؟

قلق صديقه لصوته، لكنه ما عتم أن لفظ الفكرة من رأسه؛ وأرجع الأمر لحالته المادية التي تمنعه من استقلال أي مواصلات.

يدرك أن عليه تضميد ذراعه بسرعة، والبحث عن أي مصدر للطاقة حتى لا يسقط ثانية، ناجى نفسه، أو ناجاها هي: (أين ذهبت بارديس؟ أنا مكتئب، أحارب، لا أعلم من أو ماذا أحارب؟ ولماذا؟ ربما أحارب ذاتي، ولا أعلم كيف صمدت أمام كل هذا إلى الآن؟ أأنا صامد؟)

استند برأسه على طرف سريره مراقبًا يده، عقله الذي هدأ فجأة يرتب ما به، لديه أربع قصص، ألم نفسي، اتفاق مبرم، شخص غريب يتسلل للوسط يبرمه، كتاب يقرأ، ولديه قوة خاصة جديدة، لا يعلم هل حقيقة أم وهم صنعه إثر القصص التي قرأها؟ هناك رسالة والده، أغمض عينه متمتمًا:

- عليّ مقابلة عاصم، وعلي تناول بعض الطعام..

طُرق الباب الخشبي المتهالك قليلًا، لم يتبين أن الطرق عائد له لا لرأسه فأمسكها؛ لكن صوت صديقه أيقظه من غفلته، تحرك ببطء مستندًا على المنضدة بمنتصف الغرفة، والحائط المهترئ وصولا إلى الباب، فتحه بعين شبه مغلقة، يناظر صديقه الذي بهت من مظهره العث.

أسنده حتى وصلا لفراشه، جلس (ثائر) الذي انتبه لذراعه غير المضمد؛ وانتبه صديقه أيضًا، ذراع مشوه، مليء بالندب القديمة والحديثة، وهناك الخطوط التي لا زالت تحارب حتى تغلق ثانية، تاركة الدماء التي فرت منها دون اهتمام.

رفع ذراعه بينما عقد حاجبيه متسائلًا عن محاولته الانتحار، فأوضح (ثائر) أن الأمر لم يتعد فتح المعابر لروحه الحزينة حتى تهرب الحزن من جسده، وأن هذه الدماء ما هي إلا حزن مشبع أحمر اللون يغادره.

أخرج بعض المناديل ينظف بها يده، مشفقًا عليه قال: «يبدو عليك الهزال، هل أكلت شيئًا؟» أومأ نافيًا، فخبره أنها سيشتريا الطعام بالطريق، فلديهما عمل شاق اليوم.

وخبره (ثائر) عما نزل به، القصص الغريبة، تفسيره المحدود حتى الآن، رؤيته لإحدى القصص، وجود صديق أو شخص مقرب دخيل، بعض الآلام الذهنية، كتاب يقرأ، موت بالتاسع من الشهر تمامًا كمن حوله، والوفاة نوبة قلبية!

قال: «أشعر أن عاصم يتلاعب بي، يكاد رأسي ينفجر من آلامه وأفكاره، وكأنني بشكل ما أشعر أنه السبب، لا أعلم، أرى أشياء كثيرة غريبة، أشعر أيضًا، كأنني جننت» ثم نظر لعين صديقه مكررًا جملته الأخيرة، ثم قص بعضًا من هلاوسه وأحلامه الغريبة.

تنحنح (صالح) متسائلًا إن أصبح أفضل وقادرًا على العمل الآن، فأطرق هنيهة ثم قال:

- ربما خفَّ الألم قليلًا، إن ألم الرأس هذا لعنة بذاته، يشبه الأيادي التي تمسك برأسك وتعتصره، فتشعر بكل يد، وكل جزء يعتصر.

ساعده على تبديل ملابسه، تعجب من القميص الوحيد الزاهي قصير الأكمام، وعلم أنه بالطبع هدية أو ما شابه، ثم اختار له قميصًا مما انتقدهم دائمًا لتستتر جراح (ثائر) خلفها. انتعلا ظلهما في صمت طويل، حتى قطعه (صالح):

- عليك مراجعة طبيب نفسي.

رفع نظره مصدومًا، يخاف، لا من نظرة المجتمع الذي لا يعرف بوجود شخص مثله على قيد الحياة، بل من الاعتراف بجنونه. لم يرد فأردف صديقه: «كانت بارديس تتابع مع عيادة تعرفها، ربما عليك أن تحذو حذوها»

أعلنت الابتسامة أخيرًا عن نفسها، وافق طربًا ممنيًا نفسه أن يخالف الطبيب عهده ويشي بأسرارها، فيسمع عنها بكل جلسة ما ينسيه الألم والشقاء.

لمح (صالح) سعادته؛ فأخفاها متسائلًا بجدية خلقها:

- ما رأيك بعاصم؟ لا أثق بك، هل استثقلت ظله؟

زفر زفرة طويلة ثم أجاب:

- رأيته مرة أو اثنتين، لم نتحدث، قل أنني لمحته.

اشتريا القليل من الطعام الذي لا يسد الجوع، لكنه يمنح المعدة شيئًا تعمل عليه، أكلاه في صمت كل في همه حتى وصلا لمحل العمل... رجل أربعيني وقور، يحمل من الحكمة والخبرة ما تمثل بتجاعيد وجهه الكثير، والتي تخترق ابتسامته ووجومه، سلّم عليهما بود ثم أدخلهما مكتبه ذا الحائط الزجاجي. سأل (ثائر) عن نواياه المستقبلية، وكيف سيعمل على مشروعه؟ واسم برنامجه الجديد إن اتفقا!

أخرج محرمة من جيبه ماسحًا وجهه المتعرق، محاولًا الانتباه، ثم بدأ شرح الأفكار المختلفة برأسه، هناك الحديث عن التعبير المجازي عن الأخطاء، المتمثل في قصة لرجل ذي ثياب متسخة؛ سم الأكواتوفانا وكيف قتلت الزوجات أزواجهن به بلا مبالاة؟ أيضًا جرائم وبشائع العصور الوسطى وغيرها...

استمع الرجل بإنصات حتى انتهى وقال: «لا رابط بين أيٍّ منهم، هل تريده برنامجًا للمعلومات العامة فقط؟»

تردد قبل الإجابة:

- سيدي، يمكنك تسميته عالم بارديس.

تراجع الرجل متعجبًا، فأردف (ثائر):

- إن بارديس هو الاسم الأقرب للجنة، التي تمنينا الحياة بها، لكن الواقع دائمًا مشوه كالاسم

- يمكننا أيضا تسميته عالم ثائر؛ يوحي بمعان مختلفة

أراد معارضته، لكنه أضعف من أن يعارض من يعلوه شأنًا، هكذا تعلم طيلة عمره، أن يطأطئ رأسه إذعانًا.

تدخل (صالح) مرحبًا بالاسم المقترح من الرجل، معددًا الحيرة التي سيمثلها الاسم والتي قد تتناسب مع حيرة عقل المقدم، وحيرة المشاهد وتقبله التنوع بالحكايات...

اتفقوا جميعًا ومضى (ثائر) العقد بشبح ابتسامة وأمل...

بالمساء وفي طريق عودتهما توقفا أمام المقهى القريب من سكنهما الماضي، لكل منهما سببه في كونه ماض. دلفا بتؤدة غير مقصودة من (ثائر) والذي دلفت أقدامه الماضي بلا وعي...

الخامس والعشرون من فبراير

دلف إلى المكان فوجدها جالسة، عينها تجول المكان بحثًا عن شيء، أو عن رجل ما، ما إن اصطدم ناظرها به حتى وقفت فأسقطت

حقيبتها وهاتفها إثر الحركة المفاجئة، تقدم إليها بحالته الرثة، وجلس أمامها فجلست وقلبها يحمل الكثير من المشاعر.

هجمت سريعًا عليه بالأسئلة التي تدفقت خلالها تلك المشاعر الملتاعة:

- أين كنت؟ لم ترد عليّ مما يقارب شهرًا، هل هناك ما صدر مني أزعجك؟ هل أصابك شيء؟ وتركت العمل أيضًا...

قاطعها بصوته الخافت ونظراته الضائعة:

- توفيت أختي الصغيرة.

استند جسدها كاملًا على الكرسي معتذرة، لم تدري ماذا تقول؟ لكنه هو من حمل الكثير من الأحاديث بقلبه، والتي ما لبثت أن فرغت أمامها:

- الحال ببيتنا مفجع، حتى والدي الصلب، أراه يبكي كل يوم، يحتضن فراشها ويبكي، وبشكل ما بقيت معه بالمنزل، كأن لا مشاكل بيننا، بل لا كلام، الذرا يسقط من عينه ومن عين (صالح) صديقي الذي أحبها، لكنه كالمُحرّم على عيني، كأنني قاس لا أشعر، وأعلم أن قلبي قد حدث به شيء أسوأ مما قد يتوقعه ناظري.

أجابته بصوت خافت كصوته:

- ربما هو ضعف شديد، يعلمه من مروا بتجربتك هذه، تخلص من العبء ولا تستسلم له.

رفع عينه المتلألئة لعينها الهادئة، ثم قال:

- انتهت الأمطار بعد دفنها، بالسابق لم تكن تترك مكانًا إلا وعمرته بالأزهار، هذه المرة لم ير أحد منها وردًا غيري، لقد نمت بداخلي الأزهار السوداء، التي تتغذى على روحي بتلقائية بالغة، وأستسلم لها فقط...

سحبت الكثير من الهواء لصدرها، ثم أفرغته كمن يتخلص من ثقل قلبه، ابتسمت فجأة، أو ادعت الابتسامة محاولة التخفيف عنه، قالت:

- ألم تسمع من قبل عن المصائب التي يولد من تحتها العظماء؟ ربما هي مصيبة ليولد من بين طياتها ثائر العظيم.

تبسم وكأن قولها لمس قلبه، وما عتبت الابتسامة أن أصبحت سخرية، تبعتها كلماته:

- اللحظات التي اعتقدتها الأتعس في حياتي، تحولت إلى لحظات السعادة السابقة، هي اللحظات التي كنت أحمل بها أكبر قدر من الأمل، الذي فقدته كما فقدتها الآن.

ردت بإحباط:

- كل يوم استيقظت به واستيقنت بوجود الأمل كان كذبة، الأمل أقوى ما قد يدمرنا.

انقلبت الآية فصار المواسي هو الذي يحتاج عطفًا، ضاقت على كليهما، وانتظرا كلمات سعيدة من أحدهما ولم يحدث لثوان كأنها ساعات ثقيلة. نطقت (بارديس) أخيرًا:

- ثائر، هل يمكنني تقديم العزاء بمنزلكم؟

فاجأته وأخافته، كيف يدخلها لتلك الأرض بيده؟ كيف ستنظر إليه بعدما ترى بيته الذي تهاجره الحشرات حتى؟ تنحنح معتدلًا ففهمت وأردفت:

- عليّ الذهاب، لا أريد الضغط عليك، لكنني تركت لك شيئًا، أو شيئين، اقرأهما إن استطعت.

ثم غادرت تلوم نفسها أنها وضعته بموقف لا يحبه؛ ويهيم هو بدونها، لكن احتاجها ولم يستطع الحديث، احتاج أن يدعوها لمنزله، أن تبيت معهما إن كان جائزًا، تمنى لو تبقى بجواره طوال ألمه، أو طوال حياته، نظر للمظروفين أمامه بنصف ابتسامة، لقد تركت نفسها معه بشكل ما، لكنها غادرت، ليت كلماتها تصبح هي، وحزنه يصبح ضحكاتها! وهذا ما عنى له إلا أن عليه الاعتراف، لقد وقع بما هرب منه طوال عمره، وبمن لا ترضى بمن مثله أبدًا، لقد صار أسيرًا للحب، ويا ويله من حقيقة مخيفة تأتي بهذا التوقيت!

طرق الباب لمنزله الناحب بصوت والده، الباب المفتوح لم يسمح بإكمال الطرق، فدلف ببطء مخافة إفساد خلوة والده، حضر بعضًا من الأطعمة البسيطة متناولًا ما يسمى بالفتات، ثم ترك الباقي لوالده وخرج، جلس على جزء مرتفع أمام الباب، وقدمه تتحسس الطين أسفلها لترتكن على أشد الأماكن مقاومة للغرس، فتح المظروف الأول قارئًا ما به بتركيز.

(العزيز ثائر،

أتمنى أن تكون بخير، مر أسبوع منذ لقائنا الأخير، ولقد أخافتني كلمتك، لا أعرف هل نظرتي لك تحتمل هذا الشيء أم لا؟ لكنني على كل حال لا أود تركك كل مرة بهلعي وخوفي، أحاول أن أقربك مني بشكل يحمل السعادة، التي لا أجيد صنعها ربما. أشعر بالقلق، شيء ما يجعلني أقلق بشأنك، وألفظه سريعًا من قلبي قبل أن يصدقه، بالنهاية لا أحد يعلم الغيب.

دعني أغير مجرى الحوار المضطرب، أنا أمتثل للشفاء، حتى أنني خلقت أحلامًا جديدة لي، أحلامي بسيطة جدًّا وربما مستحيلة، لكنني أحببتها، فمثلًا لدي كوخ صغير بين الأشجار، زوج هادئ يحبني، نحيا بعيدًا عن الجميع، هناك الحيوانات الأليفة وحيوانات المزارع، يلعب معها الصغار...

هل تخالني مجنونة الآن؟ ربما! أنا أهرب من الواقعية دائمًا، وهذا أفضل ما يمكن تقد يمه لذاتي الوحيدة.

الاكتئاب يصيب الجميع، النفسيات تدمر، كأن أحدهم صنع آلة علينا العبور بها، لكن بكامل إرادتنا، أردنا العبور لحكمة المشيب باكرًا؛ فصعقتنا الآلة، صعقتنا الحياة، ربما الآلة هي التي تحركت لتعتصر الأصغر سنًّا، كأنما كبار السن لا يكفونها، والمراهقين أصبحوا يتشبثون بإطراء الكبار لهم: يا لكم من كبار بعقلكم! هرعوا لأفكار الشباب ومحاولة الحياة

مثلهم؛ فدُهسوا مع المنكوبين منا، صار الجميع بحال سيئة، الجميع ينزفون الآلام، الجميع يعانون، الجميع يموتون باكرًا مرّتهم الأولى، ويتمنون أن تتعجل الثانية والأخيرة...

اندمجت حينما شرعت أبرر هروبي، يبدو أن الحزن أبدي أكثر مما أتصور، حتى أنه يخترق السعادة والأحلام بقوة منتصرًا. عزيزي ثائر وصديقي الأقرب، كن بخير، لن أطيل وأنتظر أن نتحدث وجهًا لوجه؛ للحديث مذاق رائع حينما تلتقي الأعين.

إلى لقاء قريب

صديقتك

بارديس)

طوى الورقة وأعادها للمظروف؛ بينما سمع تخبط والده داخل المنزل فهرع يساعده، ساعده بتناول طعامه والذي لم يختلف مقداره عما تناول سابقًا، والده رث الهيئة، أطماره لم تتغير منذ موت ابنته سوى مرتين أو ثلاثة على الأكثر، أصابت حالته (ثائرًا) بالحيرة، ربما لم يفسر مشاعره لنفسه، لكنه يعلم أنه لا يريد رؤية والده بهذا الحزن، ولا يعلم إن كان يستحقه؛ أخته لم تستحق الموت الآن، لكنها تستحق الحزن.

الصراع الذي احتل رأسه كان كافيًا لتشتيته ودعوته للهرب إلى الخيال، الخيال الجميل الذي يعِده السعادة المطلقة، وإن كانت بعالم آخر مواز.

خلد والده للنوم، أو ادعى ذلك محدقًا بالفراغ، فخرج ليعيد جلسته قارئًا الخطاب الثاني.

(عزيزي ثائر،

أين أنت؟ الأيام تمر، الأسابيع ربما، لا أجدك.

أهيم كل يوم على وجهي باحثة عن ضالتي، أنت، تقفيت أثرك بحرص بالمقهى والسكن، لم أرك، هل أنت منزعج مني؟ وأتمنى أن يكون هذا السبب لا شيء سيئًا آخر، خبرتك أنني قلقة وربما انتابتني بعض الأفكار المخيفة عن حياتك الحالية.

لقد خبرت والدتي عنك، تريد رؤيتك، علمت بأمرك حينما تبينت قلقي وشرودي، قصصت لها ما أشعر به تجاهك، أعني تسللك السلس كأبي، خبرتها أنك رائع، وقد تحمست كثيرًا.

أنت مدعو باليوم الذي يناسبك لتناول الطعام معنا، لكن بالطبع عندما أراك ثانية.

أنا قلقة، أتمنى أن تجيب اتصالاتي أو ترسل أي علامة تبشّر بأن الأمور على ما يرام.

اعلم أنني قد آتي لمنزلك إن لم ترسل الرد خلال أيام قريبة.

كن بخير يا صديقي العزيز

صديقتك

بارديس)

أيام مرت، يجمعه بوالده المسكن الواحد فقط، وبينه وبين (بارديس) نفس؛ صديقاه مشغولان، أحدهما بفقده والآخر بالمواساة خاصة له؛ فكان وحيدًا متخبطًا، يسمع أنين والده وبكاءه، يقضي أغلب يومه على البسطة أمام البيت هاربًا من مقابلة الجميع إلا الموتى، حتى كان يرفضهم أحيانًا. يتردد على البيت ثلاثة (عمران)، (صالح)، (فادي)، الأول يواسي الوالد، الثاني يبكي محبوبته ويتلمس أثرها، والثالث يأتي صامتًا مرفوضًا ممنيًا نفسه بخروج أحدهم عن حالته.

الأيام القاتمة غيرت به شيئًا ما، لم يدركه لكنه ساهم في تبديد حبه للحياة، والتي ظل متمسكا بها لأمل وحيد، أمل كان وسيلته الوحيدة للهرب من حالته دونًا عن الآخرين.

الأول من مارس

هاتفها أخيرًا ليخبرها أنه سيقابلها لتناول الطعام خلال الأسبوع المقبل، واستقبلت الأمر بحفاوة بالغة هي ووالدتها القعيدة.

الثالث من مارس

أمام مرآة المنزل المكسورة تفقد نفسه بحذر؛ يخاف أن يهين حزن المنزل بسعادته البسيطة وحماسه، ارتدى قميصًا أزرق اللون ارتداه بخطوبة أخته آنفًا، واختار الحذاء الأقل هلكًا، بينهما بنطال

أسود كلون الحذاء، بلل شعره القصير ليبدو كمن يهتم به، ثم ارتدى ساعته الوحيدة الفضية، اشتراها مسبقًا بمبلغ زهيد لكنها تمنحه مظهر الأغنياء وثقتهم، تفقد حافظة نقوده فوجدها ممتلئة بالهواء أكثر من النقود، تمنى لو يقدم له والده بعضًا من المال، لكن مذ وفاة أخته لا مال لديه سوى ما حصل عليه من عمله المؤقت جدًا، والذي بالتبعية محدود جدًا وجدًا.

ملأ رئته بالهواء متمنيًا لو يدخل الأكسجين ويُزفر القلق بشدة كأنفاسه، تسلل حتى لا يستيقظ والده وخرج.

التقى بالسيد (عمران) بمدخل المقابر فأوصله للمنزل، طرق الباب حتى تبين صحو والده وغادر...

أمام المقهى وجدها، تعدل من مظهرها البسيط وتبتسم، فستان كحلي مطرز بالورد ووشاح أبيض، كأنما علمت أنه سيرتدي ما يشابه وقلدته.

اقترب بتؤدة قائلًا:

- هل تسمح الأميرة باصطحابي لبيتها؟

اتسعت ابتسامتها لافتعاله تلك الدراما، وضحكت حينما رأت قطعة من الحلوى يقدمها؛ أمسكت طرف الفستان مدعية الدراما مثله، خافضة وجهها الضاحك، ثم رفعته ومعه أخذت الحلوى.

سألها إن كانا سيستقلا سيارة لكنها فضلت السير، معللةً بأن الهواء سيشعرها بالراحة أكثر، كما أن السيارات تصيبها بالدوار.

تحدثا حينًا وصمتا حينًا، حاولت الاعتذار عن سعادتها بينما يجب عليهما التزام العزاء، بيد أن ابتساماته وسعادته جعلا من الوقاحة تذكيره بمأساته.

قالت بحماس:

- قرأت الرسائل؟ ما رأيك بأحلامي؟

- أجاب بسرعةقرأت نعم، إنها تافهة.

وجمت فأردف مصححًا:

- نجمة مثلك لا يليق بها سوى تمني الفضاء أو الكون مثلًا.

ضحكت مستنكرة:

- ما هو الكون وما الفضاء لأتمناهما؟

أجاب بضحكات ترد على ضحكاتها وبصوت جلي على غير عادته:

- أنا لا أعرف، ظننت هذا ما يجب قوله.

استمرا بالضحك طوال الطريق، قالت منبهة:

- أنا سعيدة، والسعادة المفرطة شيء يدعو للخيفة.

استدرك أن الأمر سيتحول الآن، وقبل أن يقدم ما يبطله أردفت هي:

- عليّ تحذيرك أيضًا، والدتي امرأة عانت الكثير، متحفظة هي تجاه الرجال، أرجو أن تراعي أي لغو في القول يصدر منها.

ابتسم محترمًا قولها، انتكس الضحك فجأة وعم الهدوء، يعلم أن الحزن هو الواجب في حالتهما، لكنه يخجل أن يحزنها، ابتدع مزحة سخيفة لتتغير الحالة وقد نجح...

في الحي السكني، تشابهت عليه المنازل؛ فلزم خطوات (بارديس) كالطفل الذي يتعرف على العالم، عالم الأغنياء بالنسبة إليه...

فتحت الباب فأخفض رأسه خجلًا ألا تكون والدتها مستعدة للقاء، فابتسمت ملتمسةً رفع رأسه، طمأنته بالمقولة الشهيرة (البيت بيتك).

أثاث فاخر وألوان راقية، لقد توقع أن الإبهار يكمن في الألوان الفاقعة، لكن البساطة هنا تعني الفخامة على عكس ما ربي عليه، تقع على مرماه غرفة الاستقبال، والتي تساوي عشرة من منزله المتهالك، تفقد حاله الرث ثم حالها ومعيشتها، كأنَّ كابوسًا جديدًا قد خلق، قد علم أنها مرفهة، لكن لهذه الدرجة؟ إنها إذًا مستحيلة.

أريكتان وأربعة مقاعد يمكن أن يكونوا أكثر راحة من فراشه مئات المرات، تسللت من بينهم ومن خلال بابٍ آخر المرأة على كرسيها المتحرك، ترتدي فستانًا أبيض اللون منقطًا بالدوائر السوداء، يشبه أزياء منتصف القرن العشرين، ووشاحًا معقودًا من الخلف، لا يحجب سوى جزء صغير من الشعر، لا يقارن بالأصفر المصبوغ المتدلي على جبهتها، ورقبة مكشوفة.

تعجب قليلًا، شتان بين الابنة والأم؛ رمقته السيدة نظرة فاحصة عميقة قبل أن ترحب، تبسمت ثم دعته لطاولة السفرة لحين تحضير الطعام، ثم عادت للمطبخ.

التفت إليه (بارديس) موضحة:

- ارتدت الحجاب منذ أشهر قليلة، لا زالت تتأقلم.

عينه سألتها ماذا عنك؟ وكأنها زوجته التي يحاسبها كرجل شرقي غيور، لم تلق لأسلوبه بالًا وأكملت بجدية:

- اعتدت القراءة لكتب أبي الدينية لهذا أرتديه منذ عشرة أعوام تقريبًا.

علم أنه سينتصر على السيدة في شيء واحد، الدين، لكنه انتبه فجأة أنه لا يعرف عنه الكثير، لا يعرف سوى أن عليها اتباع مظهر محدد والطاعة، تذكر مرور عدة أيام منذ آخر صلاة له...

قاطعت تفكيره السيدة التي طلبت المساعدة من ابنتها، حضرتا المائدة وجلسوا، سألت السيدة بكبر:

- هل مررت بتجربة حب سابقة يا ثائر؟

سعلت (بارديس) حيث انزلق الطعام لبلعومها بسرعة، وحاول (ثائر) استدراك الموقف فأجاب:

- جربته مرة، لكنني كنت كالطفل الذي يجد لعبة جديدة فيتعلق بها ويصبح سعيدًا جدًّا، دون أن يدرك كيف تعمل؟ وكيف

تستهلك من ذاته؟ لم أدرك أن الأمر غبي سوى متأخرًا. كانت لعبة ساذجة، ظننتني ألهو، بيد أنني أصبحت اللعبة!

- الحب ليس غبيًا؛ ذلك لم يكن.

ارتشفت (بارديس) الماء محدقة به بغضب، ثم قالت قبل أن تتحدث والدتها:

- إذًا ترى الحب لعبة؟

فزع قائلا:

- أسأت الفهم، لا لا طبعًا، لكن أعني أنني كالجديد في التعامل مع مشاعري فقط، إن نساء العالم يستحققن كل التبجيل.

ابتسمت لفزعه قبل حديثه، وتابعت والدتها تسأله إن كان له معجبات، تنحنح قليلا معلنًا النفي، وقبل تبريره استنادًا لوحدته، أردفت هي:

- بالطبع لا؛ أنت عادي، عادي جدًا؛ الفتيات تنجذبن للمميز، الفنان جدًّا، الواقعي جدًّا، الرومانسي جدًّا، المثقف جدًّا... وأنت، عادي جدًا.

تبسم قائلًا:

- ألا يمكن أن تكفلني (جدًا) هذه؟

ضحكوا، باختلاف الطريقة؛ (بارديس) التي ضحكت خجًلا، تحدث وجهها المستنكر لحديث والدتها، محاولةً تغيير مجرى الحديث قالت:

- أمي، لم تخبريني عن فيلم الأمس.

أخذت تقص عليهما الفيلم بشغف، كمن يسعد بأفلام الرعب لرغبة انتقام داخلية، اندمجوا جميعًا بالأحداث حتى ذكرت موت أحد الأبطال، قالت (بارديس) متململة:

- يا إلهي! هذا أكثر ما أبغض؛ أنهم يأتون برجل لم يذكروا قصة حياته ومعاناته، وكل ما مر به؛ يقتل بسهولة وبسرعة، سيارة تصطدم به، شيء ينحر عنقه في ثوان أو أقل؛ بينما ذاك الشاب الذي نحيا معه قصته كاملة لا يموت هكذا، لا بد أن يموت بشكل بطيء، أن يمر بمراحل كثيرة. هذا وهم ورغبة من الكاتب ألا يقتل الشخصية التي أحبها، لو أنه مات بسرعة لقالوا لقد مر المشهد بسرعة الضوء، لا يدركون أنه مثل الأول، لديهما حياة، أناس يحبونهما، لديهما كل شيء... وأنا أحب أن أموت ببطء؛ هذا يمنحني فرصة معرفة حقيقة كل شخص

تراجع ظهر والدتها بحدة مقطبة الحاجبين إثر حديثها، قالت:

- ظننتك تتعافين كما قلت، لا تذكري الموت هذا ثانية، ولا تفكري في موتك، هل فهمت؟

ثم بدلت نظرها للآخر:

- وأنت، هل من واجبك تركها هكذا؟

لم يدرك متى انتهى الحديث الجيد فجأة وعم الغضب؟ نظر لبارديس التي تهز أقدامها بعصبية تتحرك معها الطاولة وما عليها؛ أما الأم فقد هربت من المكان قبل أن تحصل على إجابة.

شرعت (بارديس) بالبكاء، قدم لها المحارم معتذرًا عما حدث، مؤيدًا رأيها؛ علّها تهدأ قليلًا، وقد هدأت بالفعل في سرعة لم يعتدها؛ كانت تقاوم الدموع لا الحزن، تعلم أن وقتما يراها أحدهم فقد تعرت أمامه بآلامها؛ وهذا ما لا ترضاه أبدًا. أطرقت قليلًا ثم اعتذرت هي، سألها عما حدث للتو، قالت:

- البكاء سيئ، ضعف، أتمنى لو أقتلك الآن لأنك رأيتني بهذا الحال.

تلعثم قليلًا، كيف يهدئها وهي لا تبكي؟ بل وتفكر في قتله، وإن كان مجرد مجاز! لمعت فكرة بذهنه فقال:

- بارديس، خبرتني بحلمك الحالي، ما أحلامك السابقة؟ عندما كنت مع والدك؟

شعر بأنه غبي؛ بينما يريد استدعاء السعادة جلب الهم. رفعت عينها للفضاء زافرة الهواء برفق، بدا شبح ابتسامة على وجهه الذي هام بأحلامه، قالت بصوت هادئ تمامًا وبريء:

- تمنيت لو أصبح أميرة، سنووايت وأحيا مع الأقزام ثم يحبني الأمير، سندريلا وأتزوج الأمير، حورية البحر وأتزوج الأمير، أظن مثل هذه الأشياء.

قال ساخرًا:

- هل في كل مرة ستتزوجين الأمير؟

ضحكا، وأردف:

- ثم من كل هؤلاء الأميرات؟

قالت بلهفة مستنكرة:

- ألا تعرف الأميرات؟ ألأنك ذكر أم لأنك لم تعش طفولة جيدة؟

ابتلع ريقه ثم قال بصوت خفيض:

- أنا لم أعش.

تنهدت، قالت:

- كيف سيكون الحال لو علم أهلنا حقيقتنا؟

تبسم ساخرًا:

- سيدركون أنهم أنجبوا أبناءً غير من عرفوهم.

ضحكت، ومع ضحكتها دلفت الوالدة ثانية بعين ماكرة متحدثة: «تركتكما قليلًا، أظنها خدمة جليلة أيها السيدان»، ثم ضحكت؛ ضحكا بخجل متجنبان النظر لبعضهما البعض، و(بارديس) تغمز لأمها أن تتوقف...

سواع من الاستمتاع والضحك، النظرات المتبادلة، تدخل الأم لإفساد وقارهما كل بضع دقائق، وانتهت الزيارة.

ودعته الأم معتذرة عن سوء أسئلتها؛ متحججة بخوفها على ابنتها الوحيدة، خبرته عن سعادتها البالغة برؤيته، أنها لم تتخذه هزوًا كما ظن ولو للحظة واحدة، ابتسم شاكرًا وداعيًا لها:

- ختم الله الخير لك أماه.

لمعت عينها سعادة؛ كأم وجدت أخيرًا الزوج المناسب لابنتها، لم يفهم ولم تفهم الابنة بالطبع، لكن حسبها أنها يقنة من اختيارها هذه المرة..

اقترب من منزله حيث الظلام، صوت الموتى الهادئ بكل مكان، اصطدمت عينه بوالده أمام الباب بجانبه حقيبة، هرع إليه متسائلًا، فخبره أن عليه العودة للسكن والبحث عن عمل، وألقى إليه مظروفًا من المال، لم تكن الرؤية جيدة، لكنه بالفعل رأى عين والده الحمراء، لم يعلم أشر هذا أم ألم؟

قال بصوت خشن:

- اعلم أن هذا البيت لا يستقبل المستهترين النزقين أمثالك، تذهب وتضحك وتعود منشدًا أغاني الحب، وكأن أختك لم تكن!

قال متلعثمًا:

- ما الذي تقوله؟ نعم لقد كنت سعيدًا، هذا شيء محدود، وحزني عليها لا يفارقني، كيف تحاسبني على ما لا ترى؟

رفع رأسه شامخًا قائلًا كمن يرتج الهواء من صوته:

- الأمر لا يتوقف على مغادرتك المنزل، بل اعلم أن القريبين منك هؤلاء وهمُ سيدمرك، لا فرح حقيقي بوجودك معهم، عد لرشدك وتوقف عن المراهقة.

غضب كثيرًا، إذا هو يعلم عن أمر (بارديس)، لكن إهانته لمشاعره شيء لا يقبله؛ صرخ كمراهق يحتج على قرارات والديه:

- أنا لست طفلًا، لا يتعين عليك اختيار من أرافقهم، ولست أنت من تحدد أصلحهم، وسأنزل عند رغبتك، لا لشيء سوى أنها رغبتي أيضًا.

ثم التف مغادرًا.

صاح الوالد:

- لا أحد يحبك مثلما تظن، أتحدث لمصلحتك

رد بينما يبتعد:

- ليس الجميع مثلك.

نقد حارس العقار أجرة شهرين ثم دلف لغرفته الضيقة، والتي لم يزعجه ضيقها قط، أطفأ الضوء وقبع بفراشه ملتحفًا بالغطاء الثقيل، علّ ثقله يحميه من العالم، يريد البكاء، ممتلئ به، لكنه لا

يبكي، يود الصراخ ولا صوت لديه، يخاف، يخاف الجميع، يخاف الضوء، الناس، حتى من يحبهم، يريد الهرب منهم، ويريد الهرب منه، حتى مواجهة ذاته ثقيلة، تدثّر بالغطاء متمنيًا أن يصبح أثقل من الثقل الذي به، فيدفئه، ورغم أن الحرارة بالخارج معتدلة، إلا أن جسده كالثلج، يرتجف كالعاري وسط الجليد.

أقصى أحلامه النوم، والنوم رافضه، فضل حكة اليدين والنفخ فيهما علّ التدفئة تنسيه، لكن لا شيء، يشعر بالفشل، بأن الجميع يعرف أنه فاشل ويكرهه، يخالجه شعور قوي أن الجميع سيتركه، الجميع لا يريد البقاء مع فاشل مثله، وإن شاهده رجل ما لا يعرفه، سيقرأ هذا الشيء على وجهه.

ظل هكذا يحارب العالم الوهمي وذاته المحبوسة حتى منتصف الليل، قضى عليه البرد والجوع والنوم، فاستسلم للنوم المذبذب، والذي مثّل أسلم الحلول...

أوصله (صالح) للمنزل ليستريح مطمئنًا إيّاه أن لا شيء سيئًا سيحدث، وأنه سيدبر موعدًا للطبيب، عليه فقط الالتزام بالعمل؛ على الأقل ينشغل عقل، ثم غادر؛ لم يستغرق الكثير وخلد (ثائر) للنوم مرهقًا...

(طفلة صغيرة تعرّف عليها بسهولة، بارديس، ذات شعر أسود يزينه شريط وردي، تتلفت حولها كأن شيئًا يخيفها، بعض الأوراق أمامها، تزيحها ثم تعيدها ثانية لتقرأها؛ الأوراق مدون عليها كلمات

لا تعي معناها، لكنها تدرك أنه خط والدها، يُفتح الباب فجأة فترتعب معيدة الأوراق لموضعها بسرعة، ويسقط بعضها أرضًا.

رجل ضخم يشبه وجهه الجحيم، أو يشبه الجحيم وجهه، يتحدث بصوت منخفض مخيف:

- ألم أقل لك أن هذه الغرفة للكبار فقط ولا يمكنك لمس ما بها؟

تتلألأ عينها، حنجرتها لُجمت إثر رؤيته، تتهته بلا صوت؛ يتقدم هو ويقبض على شعرها جارًا إياها منه؛ فينطلق صوتها صارخًا مدويًا، تحاول الفرار وتنجح أخيرًا تاركة الشريط الوردي بيده، تركض عابرة ردهة واسعة وتسقط بنهايتها، بينما يهرول هو ناحيتها، تصرخ ثانية خوفًا...)

ويستيقظ (ثائر)، لم يفتح عينه لكنه استيقظ، يحاول أن يبقى داخل الحلم، أن يتدخل وينقذها، أن تهرب حتى، لا يريد هذه النهاية.

يفتح عينه ببطء والتي ما عتبت أن اتسعت خوفًا، يرى رجلًا واقفًا أمامه، بشرته أقل اسمرارًا منه، وشعره أقصر ربما بمللي أو أقل، يرى نفسه! نظرات حانقة ثابتة.

رمش مرة فاختفى، رمش أخرى فعاد، ظلا محدقين ببعضهما البعض، حتى رمش للمرة الثالثة، واختفى للأبد. ظل بفراشه لا يتحرك، يخاف أيغمض عينه أو يبقيها؟ هل سيعود؟ هل سيؤذيه؟ من هو؟

الخوف قيّده وجمّده بزاوية الفراش الصغير لنصف ساعة، تبعها آذان الفجر، وعلى غير عادته قرر الذهاب للصلاة، هو الذي لا يصلي كثيرًا، وأكثر صلاته على الأموات.

اتجه للوضوء، شرب القليل من الماء، علّه يخفض من حدة قلقه، فتح الباب ثم تراجع سريعًا؛ (عاصم) قد عاد، مبتسمًا كعادته بغموض...

انقبض قلبه متراجعًا، هل يعلم أنه يريده؟ بالطبع، رجل مريب مثله يعرف، إن كان رجلًا!

تحدث (ثائر) بصوت هادئ لا يخلو من الغضب:

- تعلم أنني أنتظرك، تحاول تشتيتي وإلهائي عن الحقيقة، لكنني أدركها جيدًا، وأدرك من أنت.

لم تتغير ملامح وجه غريمه، وصوت يشبه صوت (ثائر) ذاته صدر داخل رأسه، أدرك فورًا أنه يعود لـ(عاصم):

- لم أشتتك، أنا أهديك للحقيقة، لا أحب رؤيتك غارقًا في الأوهام فقط.

- فقررت أن تزيدني من الشعر بيتًا؟

- بل أنا ساعدتك للفهم، بيد أنك متمسك بحماقات رأسك الصلد هذا.

أغلق الباب خلفه ثم استدار ثانية بهدوء؛ قال (ثائر) باضطراب:

- كل قصة لا بد أن تتوافر بها عدة عوامل، صديق لديه شيء من الإعاقة الجسدية، كتاب، ربما ألم بالرأس أو على الأقل مصيبة على الرأس، واتفاق مبرم، تبايع فلانًا على خدمة مقابل حياته؛ أما أنا، فحياتي أغلى من أن أقدمها لك.

اتسعت ابتسامته ثم ضاقت، عينه لا تفارق عين (ثائر)، حتى أنه لا يرمش، سقط (ثائر) فجأة، صراخ يملأ رأسه، صوت رجال، أطفال، نساء يصرخن، هناك من يغني، من يبكي، هناك من يمسك شيئًا ويطرق رأسه مدندنًا، كأن مدينة صاخبة تحيا داخل عقله، وعقله المصب النهائي لأصواتهم القوية والهشة، اجتاح البرد جسده فانكمش، واهترئت أعصابه، ارتجف بشدة كمن أصابه صاعق كهربائي، أنّ كطفل محموم يستجدي حب والدته المحيطة به، لكن لا أحد يحيطه، فقط (عاصم) أمامه بنظرات ثابتة، يبث في عقله ما يدمره.

هدأ كل شيء إلا بعض الأصوات، امرأة تودع ابنها الصغير وتبكي بحرقة، رجل يقص على ابنه قصة شيخ متسخ الثياب، مقطوعة فنية على البيانو، امرأة تئن بالمشفى ببقايا صوتها، جلّهم بوقت واحد، لكنه استطاع تبينهم جميعًا، هدأت حركته، وانقطعت الأصوات، ليحتل صوت (بارديس) رأسه:

- نفذ ما يقول عزيزي ثائر، لا تعترض، نفذ ما يقول...

كررت كلماتها كثيرًا؛ فوضع يده على رأسه مقاومًا، قال:

- كذب، كذب، هي لن توافق.

ثم صرخ عاليًا غير مراع حرمة الموتى حوله. وقف ثانية أمامه، بنظرات متحدية، متجاهلًا الصوت الذي ظن أنه لن يتجاهله أبدًا، قال بصوت عال يحاول جعله أعلى من صوت رأسه:

- أنت لن تدمرني بما تفعل، ولن أنصاع لك.

انقطع صوتها وحل صوت ضحكاته العالية، أغمض عينه علّ عقله يغض الطرف عن الصوت، قال (عاصم):

- هل تظنني سأعرض عليك عرضًا؟

ضحك هذه المرة بذاته، ثم أكمل صوت داخل رأسه:

- ليس الجميع مخيرًا، حتى إن كان لقد قرأت الكتاب، بيدك ابتدأت لعنتك.

ثم تحول صوته لصوتها مكملًا:

- عزيزي ثائر.

اندفع ممسكًا ياقته:

- لا تحاول التفكير بها، ليس حتى استخدام صوتها.

أبعد يده بقبضة قوية، وتغير وجهه الباسم لوجه أجوف بلا ملامح:

- أنا أساعدك، تم اختيارك إذًا أنت ستموت باليوم المحدد، ألم تدرك كم ساعدتك بالفعل؟ فكر معي، لماذا أخبرك عن أنواع الموسيقا؟ ما علاقة سم الأكواتوفانا بالقصة؟ ما علاقة عصور الظلام بسيدة ترعى طفلها؟ ألم تفكر؟

كيف أتى فادي بفكرة الراديو بنفس التوقيت؟ كيف أبهرتهم؟
دعك من هذا وذاك؟ من أطعمك؟ أنا، وإن لم أفعل مباشرة
أهمس لصديقيك فيأتيا

- قل توسوس.

- لا فرق، هل تريد معرفة كل شيء؟ لماذا ماتت أختك؟ ما الذي عرفته وأخفته عنك أعوامًا؟ والذي بالمناسبة يعرفه صالح.

تردد قليلًا قبل أن يجيب، استطاع هذه المرة تشتيت عقله وملأه بالأسئلة، قال مدعيًا الثقة:

- كل ما تقول لا يعنيني، لقد ماتت وأعلم لماذا، أنا لن أتفق معك، انس هذا.

- أنت لا تعرف شيئًا، وهذا ليس اتفاقًا، بل خدمة فقط، ربما توافق فيما بعد أيها المختار.

استدار مغادرًا المنزل ثم أغلق الباب، وانفجرت في عقله الأفكار، كاد يسقط هائمًا في الأمر إثر حديثه، لكنه صرخ كمن يثق أنه بالخارج بنيته للصلاة، فتح الباب بسرعة ففاجأه ضوء الشمس القوي، هذا من غير الممكن؛ لم يمر الكثير لهذا الحد!

أغمض عينه مقاومًا، ثم فتحها ببطء جالًا المحيط بنظره المحدود، الكثير من الناس، صديقاه هنا، أبوه أيضًا. رأى (عاصمًا) معهم، ما الذي يحدث له؟ هل كل هذا حلم؟ لا يظن، يشعر أن كل شيء حقيقي، أو ربما يتوهم، أجن؟ ربما أيضًا...

اقترب من الجميع مراقبًا (عاصمًا) والذي التفت إليه قائلًا بصوت خفيض: هل تريد؟ مشيرًا إلى الجثة.

ربما أراد التراجع، لكنه حقًّا يريد، هذا شيء لا أحد لا يريده، التف ناحية الجثة، صوت والده ظهر من الفضاء:

- لا بني، لماذا؟

استدار باحثًا، لم يجده سوى أمامه باكيًا، لا يراه؛ كيف صرخ؟

اقترب منها ليراها، رغم اللون الأبيض الذي تتذرى به، إلا إنه يرى وجهها تمامًا، ثم لا يرى، يفقد الشعور ببدنه، ممدد هو، عينه تفتح ببطء، تصطدم بضوء يعبر اللون الأبيض حتى عينه العسلية، أو عينها...

(أنا حنان، فتاة عادية، ربما أقل من العاديات، هذا ما أهدتني إياه الحياة فور ولادتي، أم متوفاة، أخ متذبذب يبتعد ويقترب، أب لم أعرف يومًا أحنون هو أم قاس؟ وكنت أميل للأولى في الحالتين.

كبرت بمنزل صغير ناء لا يعرفه أحد، لم أسخط لحالي قط، ألعب مع أخي صباحًا، وبالمساء ممنوع الخروج، حتى كبرت قليلًا وحملت مسئولية المنزل، طفلة تنظف وتطهو وتهتم بالمريض، شكواها يثير قلقهم ليلة ثم يعاد الصراخ من أجل إنهاء أعباء المنزل.

بالمدرسة، لم يكن لدي الوقت لتكوين صداقات، رغم أنني أبدو انطوائية بشدة، إلا أن داخلي كائنًا اجتماعيًا يتوق لمعرفة الجميع

وكل شيء، داخلي حياة؛ بيد أن الوقت لم يسعفني لأطور أيًا منها. الأصدقاء يتشاجرون؛ أنا أخاف، لذا كنت أحتمي بظهر أخي ونبتعد، أخي الانطوائي الذي حصل على صديق، يا للغرابة! لم يوافق والدي قط على فكرة التنزه مع الصديقات؛ معللًا أن هذا انعدام للأخلاق، ورغم العند الشديد والفضول القاتل، كنت أرضخ له مصدقة أقواله، أيعقل أن تنتفض الفضيلة لخروج طفلة مع صديقاتها؟

كبرت، أصبحت مراهقة متمردة، أبكي كل يوم بغرفتي وأبتعد، أقترب أكثر من الفتيات في المدرسة، من قصصهن، إحداهن تحب شابًا بالثانوية، الأخرى هربت من المدرسة مبكرًا... قصص تذهلني.

الغريب أنني لم أشعر أنني أختلف أبدًا، فمثلًا حينما تذكر فتاة شيئًا عن منزلها، أتخيل أن غرفة المعيشة هي غرفة النوم وغرفة الضيوف والأطفال... كل حسب الموقف، تمامًا كبيتي، أرى المباني العملاقة، وأتخيل المبنى الواحد يحتوي مئات المساكن، ربما ألف رجل يقطن هذا المبنى! وأحمد الله أنني وأخي لدينا مكان نلهو فيه، كساحة المقابر.

في بداية مراهقتي وصداقاتي التي ظننتها وطيدة، دعتني إحدى الفتيات لمنزلها، خجلت قليلًا رغم رغبتي الشديدة، والتي قاومتها كمن يجرفني لتيار الفتيات الفاسدات، لكن إصرارها وفضولي غلباني فذهبت، وكانت صدمة، لا أعرف كيف مرت سنوات وأنا بهذه السذاجة؟ إن غرفة الاستقبال أكبر من منزلي، وهي تعتذر عن عدم تحضير المنزل بشكل لائق وأنه يبدو بشعًا، هل الجدران الملونة بشعة؟

منزلي ملون من الخارج بلون السماء، ربما كان لونًا غير ذلك وتغير بالوقت، لكن من الداخل أيضًا بيتها ملون، أريكتهم ملونة مطرزة، لديهم تلفاز، والذي خبرني عنه والدي أنه مصدر الفساد وغير مسموح به.

لم أطل الزيارة؛ ويبدو أن والدتها لم تحبني لنظراتي الكثيرة، ركضت للمنزل فقابلني أخي بمدخل المقابر قلقًا، قال: أجننت؟ سيقتلنا والدك.

قلت فزعةً محاولةً الحصول على أكسجين مناسب يكفي أنفاسي الملتاعة: نحن فقراء يا ثائر، ليس لدينا تلفاز.

رمقني نظرة غريبة، وأحسبه كان يعلم، بالطبع فلديه صديق؛ أما أنا فكنت أخرج وأتجول برفقة أبي أو أخي، لا أصدقاء ولا أقرباء، عندما تتحدث إحداهن عن شيء لا أملكه، أسخر في قرارة نفسي منها؛ هي فاسدة وأنا صالحة كبيتي، أو سجني.

لقد كنت سجينة مقيدة لأعوام ظانة أنني حرة، ربما صدّقت كلمات أبي، نحن أفضل من الجميع، يتمنى الناس أن يصبحوا مثلنا.

تمردت، مرت الأيام أتمرد وأخي يهدئني؛ أما أبي فكان صامتًا، نظراته حادة لا يهدأ ولا ينفعل، وهذا سبب كبير لتشتتي، هل أخطأت بحقه؟ أم هو المخطئ؟ هل هذه حياة حقيقية؟ أم أننا هامش الهامش؟ هل يمكن أن يحبني شاب كصديقاتي؟ أم أنني لست من النوع الذي قد يروق الشباب؟ مئات الأشياء تدور برأسي، خدعة محكمة، لا أعرف كيف سقطت بها؟

كبرت، المرآة الصغيرة المكسورة هي سر ابتهاجي بالمنزل، أقف أمامها كل يوم، أتحدث، أبوح بما لم أبح به لشخص، اعتدت ألا أبوح، فإن قلت شيئًا، أقدره باللاشيء من مجمل الأشياء، كوعاء تتساقط قطرات الماء المغلي منه. غير ذلك، أحببت شعوري الأنثوي، أسدل شعري وأضع أحمر الشفاة الذي اشتريته خفيةً، ربما أتراقص قليلًا أمام المرآة، ويا للعجب أنا راقصة محترفة، أتخيل أنني سأجد فارس الأحلام الذي يحبني ويثني على رقصي وجمالي.

لكن أحدًا لم يأت، محبط أليس كذلك؟ وكلما تقدم رجل لخطبتي تراجع نافرًا، رغم حزنيٍ كنت أعلم، لا أتمتع بمقومات الجمال المعروفة، لست بيضاء مثلًا، شعري مجعد، قوامي نحيل، غير هذا فقيرة وملابسي تشي بفقري.

اجتهدت، ودخلت كلية الصيدلة، تبدل حال المنزل، أخي منذ سنوات يعيش بعيدًا عنا، يأتي دقائق لأخذ المال من أبي ثم يرحل بعد شجار مستمر، أبي يبقى صباحًا ويذهب لعمل آخر مساء، وأبقى أنا وحيدة، لا أقول كئيبة؛ فالكآبة تعني عدم الرضا والرغبة الداخلية بالتغيير؛ ونهايتها إما الانتحار أو طلب المساعدة، بل أقول ساخرة، ناقمة على الوضع حتى تشربته وتشبعت الآلام، أتأقلم بالسخرية، السخرية من حالي الهزيل، من مستقبلي السيئ المظلم، والذي ربما لن أشغل الكثير به فوق الأرض.

الوحدة قاتلة، سمعتها كثيرًا، لكن أكاد أجزم أن لم يقلها أحد ويشعر بها مثلي، كنت رغم الدراسة والتغزل في نفسي أشعر بفقد حزين، حتى أنني فقدت الثقة في ذاتي التي لا يمكنها تكوين صداقات،

أو إبقاء أهلها حولها، وتحولت نظرات الإعجاب لاستحقار، وأحيانًا تعجب واستنكار، هل أنا موجودة؟ هل يشعر بي أحد؟ بالطبع لا، أنت قبيحة، سيئة، لا أحد يحبك، لا أحد يريدك بحياته! كلما اتسع العالم حولي ضاق في نفسي، أكتشف أنني أحيا بسجن مفتوح بلا مهرب، ملابس صديقاتي تخبرني أنني فقيرة ولا أملك الألوان والتنوع مثلهن، حياتهم تذلني بالفراغ الذي أقبع فيه.

ادخرت بعض الأموال واشتريت قصة، رومانسية، رأيت نفسي فيها بطلة جميلة رائعة الجمال، فقيرة يذلها العالم، والرجال يتشاجرون لأجلها، كم كان محبطًا! أأنا أقل جمالًا وشأنًا منها

وكأن شعوري بالقبح بدا على ملامحي؛ صرت أرى أنفي الدقيق كبيرًا يحتل وجهي، عيني تبدو منفرة، شفتاي غريبتان لا تليقان بوجهي. كرهت المرآة ونفسي، وأحببت الحياة مع القصص البسيطة، قرأت بضعة كتب حسب قدراتي المحدودة في الشراء، قررت توسيع أفقي، حولت مساري من قراءة الكتب الطبية والرومانسية، لكتاب ديني كبير، شعرت بنهم لأعرف كل شيء، لأثبت لنفسي أنني لا شيء في هذا العالم.

رغم أنني قرأت، لكنني كنت بعيدة عن كل كتاب يقع تحت يدي، أقضي نهاري إما أقرأ خفية، أو أراقب طقوس الدفن، والدي يقف بين التراب، يمسح عرقه بيد متسخة كملابسه، ينقده أحدهم بضعة جنيهات، فيقبلها بإذلال يذلني أمام نفسي، رغم أنني كل مرة أقرر الهرب من ظفر هذا الموقف، إلا أنني كنت أشاهده، ربما أحببت تعذيب ذاتي.

أراقب ظلال السحاب ممنية نفسي بالمطر نهارًا، وأعد النجوم ليلًا؛ لذا الليل الأهيم الذي لا يهتم الناس به مصدر وحدة لشخص مثلي.

انقطع أخي تمامًا لكثرة الخلافات وقرر إرسال أصدقائه، كعادتي أستتر بالباب مراقبة العالم الصغير، وهذا كان تحولًا كبيرًا بحياتي، لقد رأيته، رجل الروايات، ربما لا يشبههم تمامًا، لكنني شعرته هو، وخالجني شعور يرجف قلبي له، حتى أنني حسبته يسمع دقات قلبي من هذا البعد.

عادة لا أخرج من المنزل إلا مرة خلال أشهر، هذا الحال مذ انتهى تعليمي، ربما أخرج للساحة لكن لا أتعداها، إذا جاء ضيف أقبع بغرفتي تتكالب عليّ الأحزان الناجمة عن وحدتي، إلا أنني تحججت وخرجت، كأنني لم أره، افتعلت الصدمة من رؤيته وهرولت للداخل، تعجب والدي وأظنه غضب قليلًا أكثر من غضبه من أخي؛ بينما أنا رغم ادعائي هرب جسدي أيضًا خوفًا من افتضاح أمري، ربما وجهي أحمر، أنفاسي قوية، وقلبي يدق المسامير اللينة في صدري، تؤلم وتهدئ في نفس الوقت.

مرت الأيام، أمسك الكتاب الذي أقرؤه للمرة الثالثة ثم ألقيه، لا تركيز، هل قال لأبي أن اسمه (صالح)؟ إذا كان زميل أخي فهو يكبرني، هل سيراني جميلة؟ يا إلهي كيف نسيت؟ ضممت ركبتيّ إلى بطني ساندة وجهي عليهما، أتردد للأمام والخلف بتوتر، يجب ألا يراني ثانية، أنا قبيحة، هل أنا كذلك؟

كعادتي أقرر ولا أفعل، جاء مرتين وفي كل مرة تلصصت عليهما، في المرة الثانية سمعته يقول أنه ذاهب ليلحق بالصلاة، الصلاة التي سمعت عنها بالمدرسة، هل الصلاة تسبب الجمال والحب؟ هل تصلي الفتيات الأخريات؟ أإذا صليت يحبني؟ أبي لم يحدثني عنها، لم أره يصلي من قبل، أنى لي معرفة الطريق؟ قلبت بين الصفحات بكتاب الدين، لم يتحدث عنها بشكل مفصل، كأن كل من يقرأ يعرفها، لكنني أتذكر الكيفية من المدرسة، فقط أخاف الخطأ، توضأت، هل لدي ذنوب؟ هل يمحوها هذا الوضوء؟ افترشت إحدى ملابسي على الأرض، وارتديت الحجاب الذي فرضه والدي عليّ منذ الصغر، تمتمت الكلمات التي أحفظها بتردد بالغ؛ أخاف الخطأ، أعلم أنها شيء عظيم لا مجال للخطأ والإعادة، كمن يكتب على ورقة لا يمكنه شطب الخطأ فيها وإفسادها، هكذا علموني بالمدرسة.

العصر، أربع ركعات، أنهيتهم وبقيت على الأرض، متجه وجهي للقبلة التي تتجه لها أوجه الموتى من حولي، كم وجه يلتف عنها يا ترى؟

أنا لا أبكي، هل من الصلاح أن يبكي الإنسان؟ أشعر بتجويف عظيم في عقلي، لست سعيدة حد البكاء ولست نادمة على حياتي كما قرأت بإحدى القصص، ظللت واجمة، أنظر للفراغ أمامي أفكر في مئات الأشياء. مكتوب أنه يمكننا الحديث مع اللّه أثناء الصلاة، ولدي الكثير من الأحاديث، تعلمتها حتى إن كانت غير صحيحة، لكن شيئًا بروحي شعر أنها جزء مني، كل هذه السنوات لم أر هذا الجزء قط.

لم تنته وحدتي، كنت أحسد أخي، الإنسان الذي لا يملك مهربًا لا يمكنه العيش بشكل سوي، إن كل مكان سجن بلا أبواب، لا وحدة ولا خصوصية، أين أهرب؟ بينما أخي هرب منذ زمن، حدثني أكثر من مرة مؤخرًا وعاود الزيارة، ينبذ أبي إليه المال معنفًا، ولا أعلم السبب، يتشاجران ويذهب لاعنًا يوم ولادته.

اختفى صديقه فترة أصابتني بالقلق حتى عاد، أبي ليس بالمنزل، ارتديت عباءة بسيطة وأخذت الظرف الذي تركه والدي لأخي، كان يعلم بمجيئه، قابلته ناظرة للأرض، ولم يخف عليّ أنه خجل بشدة مثلي، رغم حركة عينه المضطربة التي فحصتني أكثر من مرة خلسة، خبرني أنه جاء لأخذ المظروف فقدمته إليه بيدي الراجفة، ثم أخفيتها بسرعة، يده أيضًا ترتجف، سألني إن كنت أخت (ثائر) وأجبته. بقينا واقفين فقلت ما أصفه بأغبى أفعال حياتي: أنا أصلي أيضًا.

تبسم ولم أعلم أيسعد لي أم يسخر؟ اعتذرت وأوضح أن لا بأس، هو ذو نفس تمنعه أن يقلل من شأني وشأن حديثي، سألته عن (ثائر)، وبحيلة أعرف أنه كشفها خبرته أنه سيأتي ليوم مولدي بالتأكيد، وقبل أن يرد أتى أخي، تلعثمت وتلعثم هو ملوحًا بالظرف في يده، وتركت الأمر بينهما بعد ذلك.

ذكرى مولدي بعد يومين، لماذا سيأتي خلالهما؟

استأذنت والدي باليوم التالي للخروج وبعد محايلات وافق، ابتعت زهرة وثلاثة كتب، وحين عودتي اصطدمت به صدفة، تلعثمت بالطبع وتلعثم خجلًا، سألني عن الوردة وخبرته أنني سأزرعها بالقرب من

البيت وأرعاها، ولم أخبره الحقيقة كاملة، ثم خطرت ببالي فكرة حمقاء فقلت:

- هل تعرف أن عيد مولدي غدًا؟ لقد أحضرتها هدية لنفسي.

ضحك هذه المرة، رنين خاص أحسبني سمعته بالروايات، بهتت دهشة منه، غير قادرة على إبعاد عيني، قال ناظرًا لي:

- لا ترددي تاريخ مولدك كل برهة، أعطيني الوقت لأثبت أني أتذكره.

أمسكت الكتب وأريته إياها، لا أعلم كيف أتعامل معه بهذه الطريقة؟ حري بي الركض والاختفاء، لكنني كطفل وجد والده، أوليس لدي والد؟

نظراته لي تغيرت، بدا سعيدًا، لم يتخل عن وقاره وجديته، لكن شيئًا عطوفًا خرج من عينه وفمه وقلبه، أيعطف علي؟ هنا تراجعت، تعللت بتأخري والذي لم يكن كذبًا. ركضت للمنزل تمور برأسي أفكار، هل يمكن لرجل مثله أن يحبني؟ رأى أبي ما ابتعت فقال:

- تشغلين رأسك بما لا ينفع.

حضرت الطعام ونظفت المنزل الصغير بسرعة، صليت ثم لجأت للساحة التي تغرز الأقدام فيها لكثرة الطين والتراب، مساحة كافية لإدخال جذر الزهرة، والقليل من الماء كل بضعة أيام، زهرتي (زهرة صالح) هكذا أسميتها بيني وبين نفسي، كل يوم أجلس أمامها أحدثها، أقص لها أحلامي البسيطة، اليوم صرت أقص لله وللزهرة.

في يوم مولدي، وجدت (صالحًا) أمام الساحة كمن يعبر صدفة، تبسمت حيث فهمت، ارتديت ثيابًا بسيطة وغالية بالنسبة إلي، ترجلت له بينما يظنني أبي سأتفقد الزهرة، رفعت يدي لينتبه، وأعرف أنه منتبه من البداية، سلّم برفق كعادته، ثم قدم لي كتابًا عن الصلاة، ابتهجت بشدة، كأنه يعلم خوفي الدائم، قال:

- كل عام وأنت بخير، أريد محادثة والدك وأخيك.

- بشأن ماذا؟

خفت؛ خلته سيفصح عن حديثي معه، لكنه فاجأني برغبته غير المتوقعة منطقيًا، لكن خيالي حلم بها، يريد خطبتي. خبرت أخي وبعد الكثير من المحايلات واستعتاب والدي الذي يرغب بخطبتي لرجل آخر، تمت الخطبة، بهذا الوقت كأن والدي كان يعلم صار غاضبًا لأني لم أوافق على الرجل الذي جاء به، لقد منع عني الزواج والمتقدمين لأكثر من عامين بعد التخرج، لماذا يصر الآن؟

كل ما يهم والدي هذه الفترة أن يحول البين بيننا، كأنه يعاقبني أنني اخترت، أيستكثر الحب عليّ؟ ألا يكفي سجني؟

أبي لديه أموال، كل بضعة أيام يخرج مساء ليعمل، بالبداية ظننته يعمل حارسًا لأحد المباني، لكنني دحضت هذا الفكر، مع الوقت، إذ أن الأموال أكثر من أن يحصل عليها حارس حسب ظني الشخصي، السؤال: لماذا يضغط بهذا الشكل وقد يكون لديه ما يساعده على زواجي؟

قررت العمل وهنا تعرفت عليها، السيدة صاحبة الصيدلية، وافق والدي على العمل لأخفف من حزني، وهذا شيء آخر غير مفهوم. السيدة قارئة نهمة، قضيت أوقات فراغي بالقراءة، قرأت عن الحروب عن هتلر، عن جيفارا، أحببت وكرهت، سعدت وحزنت، لكن هذا لم يدم إلا أيامًا محدودة، وحينما تبينت المرأة القعيد مأساتي عرضت مبلغًا للسلف، لم أدر نواياها بالبداية، لكنني علمت كل شيء، خلال أيام محدودة تحول كل شيء لكابوس، أبي يضغط علينا، والكوابيس تطاردني، بئس حالي، لكن شيئًا بداخلي حارب.

اليوم الثامن من الشهر مساء، تذكرت شيئًا يخص أبي، خبرت (صالحًا) به ونصحني أن أكتم على الأمر، علّي مخطئة، صمت لكن حين هرعت لغرفتي ولحقني أبي، بكى، سألته عن الأمر فصعق، أبي القاسي أراه وقد ذرا حد نابه، بكيت وبكى، احتضنني حتى الصباح، كل ساعة أستيقظ فزعة، أنظر حولي، هل سأموت؟ هل اليوم؟

في الصباح فتحت عيني مصدومة، أبي الذي لم ينم كان كالمُخدر، رأيتها أمامي، السيدة، خبرتني أنه الآن، بكيت وتوسلت، لا أريد الآن، لا أريد، لكنها لم تمهلني، هاجمني الألم، قلبي، ذراعي، ألم لم أتخيل أن بشرًا تحمله من قبل، قبضت على ملابس أبي بشدة، تترقرق الدموع بعيني، تنقبض وتنبسط عضلات وجهي، أرتجف، أغمضت عيني، لا حيلة لدي سوى الاستسلام، المقاومة تزيد الألم، حتى الاستسلام يزيده، علمت أنني أودع كل شيء، تقيأت القليل مما ناولني إياه حبيبي بالأمس، ثم فقدت حياتي إثر نوبة قلبية)

استنشق (ثائر) الهواء بمرارة، التف يبحث عنه وعن الناس، لا أحد، وجهه متعرق وجسده، الشمس تلفح وجهه كمن يعذبه، أدرك أن الوقت يقارب الظهيرة، كيف هذا؟

دلف إلى المنزل مستندًا على الحائط، ليس لعلة جسدية، بل لعلة الحزن التي تفقده قواه، ارتمى على الأريكة، الجو هادئ تمامًا رغم حياة الشوارع بهذا التوقيت، كيف لم تعلم أختي الحقيقة لسنوات؟ وما الذي علمته عن أبي؟ هل له علاقة بكل هذا؟

مال جسده الذي انكمش، يحتضن نفسه رغم حرارة الجو، ربما البرد بقلبه أشد، وجهه باهت بلا ملامح، لا أصوات برأسه، لا أحاديث، حتى أفكاره شلت؛ بينما هناك الحياة، يسمع أنفاس الطبيعة ويشعر بها كأناسي يجولون بين ذرات الهواء، القليل من الغبار المتطاير يصدر صوتًا ربما لا يسمعه البشر العاديون، هو يفعل، صوت دراجة نارية بعيدة، ضحكة طفل ربما تبعد كيلو مترًا، كأنه يحيا ببعد آخر ويمتلك حواس أخرى، كأنه يرى العالم بقلب الموتى، ربما هو تحت التراب الآن ولا يدري، لم يعد هناك ما هو حقيقي أو أكيد، كل شيء جائز.

الثالثة عصرًا، رن هاتفه باسم (صالح)، أجاب بهدوء لا يشبه نبرة الصديق، يخبره أن صديقهما (فادي) في المشفى؛ والده مريض بشدة. لم يغير ملابسه التي ارتداها منذ الفجر، أزف في طريقه غير مدرك لما حوله، سوى عندما وصل إلى المشفى.

احتضن صديقه المفجوع مهدئًا، وجهه مختلف، الحزن صنع له ملامح مختلفة، تجاعيد جديدة في زمن قياسي، عضلاته المرتخية لا تشبه روحه النشيطة عادة.

ارتكنوا سويًا على جدار بارد، لم يشعر (فادي) بالبرد لاحتراق قلبه، قال:

- عشت كل شيء جيد، ألهو وأفرح، لم أستعد ليوم كهذا، بل لم أجسر على التفكير أنه سيأتي يوم وتعرض حياة والدي للخطر، وكيف أفكر وأنا التافه؟ الذي لا يشغل رأسه سوى كيف سيسعد نفسه اليوم؟

أأنا جيد؟ سيئ؟ في الحقيقة لا أعلم، كل يوم كنت أرسم الوجه السعيد، وأخفي وجهي الحقيقي حتى نسيته، اليوم اكتشفت أن لي قلبًا يشعر، حين صار قلب والدي مهددًا بالتوقف.

قال (صالح):

- لم أكن لأصادقك لو أنك سيئ أو لا شيء كما تظن، نحن نحبك، نعلم كم قلبك نقي وطيب! أنت دائمًا حي بذهني، حتى أنني كنت أفكر ماذا سنرتدي و(ثائر) بحفل خطوبتك.

- عالية؟ إنها رائعة، حتى أنها خبرتني أن لديها علاجًا مناسبًا لوالدي، أتمنى أن ينجح.

بهت (ثائر) للاسم، وقبل أن يستفسر قدم (صالح) التهاني ليمسح الحزن عن وجهه قليلًا، ثم قال برفق:

- ستكون بخير، وسنفرح جميعًا قريبًا، أنا، أنت، والدك، وهذا المجنون صديقنا للأسف.

ابتسم متوقعًا ابتسامتهما، على الأقل (ثائر)؛ لكن عقل كل منهما مشغول. تمتم (فادي) بصوت يمكن سماعه:

- إنني كمن لا يتنفس، كمن يغرق عميقًا ويختنق بشدة، بل كمن يختنق رغم الهواء النقي حوله، كمن يتعذب بلا رحمة.

ارتفع صوته بغضب ووهن:

- الطبيب لا يريحني؛ يخبرني بإيجاز أن حتى العملية التي سيجريها لن تنجح غالبًا.

قال (صالح):

- اهدأ، كل شيء بيد الله، ونحن معك.

مال (فادي) برأسه للخلف، ساترًا ملامحه خلف يده المرتجفة، تهتز قدمه بتوتر، انتقل بدوره لأقدام صديقيه.

توقف (صالح) فجأة، سألهما إن كانا تناولا أي طعام؟ وقبل أن يردا اختفى من أمامها؛ هو يعلم الإجابة، أحدهما لا يمتلك نقودًا، والآخر منذ الصباح في حالة هلع.

(ثائر) التائه فقد إحساسه بالأمر الجلل لأن ما بعقله -حسب ظنه- أخطر، قطب حاجبيه مستفسرًا عن اسم فتاته، فأجابه بـ (عالية).

- لم تقل هذا الاسم من قبل.

أجاب بانفعال واستنكار:

- بالطبع قلت، لا أعلم، هل يهم هذا؟

تراجع مدركًا الحماقة التي أقدم عليها، والتي ليست حماقة كلية، معتذرًا قال:

- أعتذر، يبدو أنني مجنون كما قال صالح.

وعلى ذكره قد عاد محملًا ببعض المخبوزات غير الطازجة والمشروبات الساخنة، حاولا جعله يأكل، وبالكاد استجاب لهما. انتهت العملية وانتقل الوالد لغرفة أخرى وهم وراءه، يتمتمون بالدعاء والأذكار، يعضون شفاههم ويطقطقون أصابعهم، يمورون أمام الغرفة جيئةً وذهابًا، حتى سمح الطبيب بدخول قريبه من الدرجة الأولى فقط، تحت إجراءات مشددة.

ما كاد يرتاح (صالح) جالسًا، حتى وجد (ثائرًا) منقضًا عليه بسؤاله:

- ما الذي قالته لك حنان عن أبي؟

اتسعت عينه؛ مسح بجبينه غير المتعرق بيده ليخفي أثر القلق، ثم قال بثبات مهترئ:

- تعرف الفتيات، أحيانًا عقلهن يثير الشكوك حول أوهام.

تلفت حوله ثم عاود الحديث بوجه جاد مخيف:

- هي تعلم عن الحقيقة، وما قتلها يريد قتلي وسيقتل فادي مستغلًا مرض والده، نفس الشيء الذي قتل بارديس.

انتبه له، كأن حديثه المجنون يحمل شيئًا من الصحة، سأله ثانيةً عما قالت أخته، فأجاب بخجل وتوجس:

- هي لا تعلم عمل والدك الليلي ولا أنت، ورأته في ليلة أمام قبر ما يفعل شيئًا، وعندما استدار اختبأت، تظنه نبش قبر ما أو له علاقة بشيء سيئ، أنت الآن تظن مثلها؟

الأفكار التي تدور برأسه تحيره وتلجم فمه، استطرد صديقه:

- اسمعني جيدًا، أعلم أنه قاس، أنت تظنه يفضلها وهي تظن النقيض؛ من السهل أن تظن به الظنون لأنه ليس بالقرب الكافي منكما.

ثوانٍ من الصمت أعادت لذاكرته حديث (ثائر) الغريب فسأله عن قصده. تنفس (ثائر) بعمق يعد أنفاسه وحنجرته ولسانه لطرد الهم الذي يحمله، قال:

- عاصم، إن كان هذا اسمه، عمران صديق والدي، ليسا بشريين، القصص التي قلتها لك لم تكن مجرد كوابيس وهلاوس لرجل فاقد عقله... «حاول مقاطعته استنكارًا لكنه لم يتوقف: «هناك كتاب يقرؤه الشخص، يمر بمرحلة كوابيس وهلاوس، يقع في ضيقة ما ومن حيث لا يدري يظهر صديق أو جار، أي صفة، شخص من ذوي الاحتياجات الخاصة، يعرض عليه مساعدته، مثلًا يشفي مريضًا، يبهجه بآخر أيامه حتى، ثم يقتله بذبحة قلبية، كنت أظنها قصصًا حتى رأيت حنان مثلهم.

انتفض (صالح) ثائرًا:

- ما الذي تهذي به؟ كيف رأيت حنان؟ يبدو أنك جننت بحق.

فكر (ثائر) سريعًا ثم قال:

- لقد خبرتك عن يوم مولدها، ولقد أحضرت لها كتابًا عن الصلاة، أتذكر؟ ولقد ابتاعت وردة أسمتها وردة صالح، لم تخبرك باسمها لكنها تهتم بها؛ وأنت سألتها عنها، صدقني لقد رأيت كما لو كنت هي وفهمت كل مشاعرها، لقد أحبتك، فعلت كل شيء لأجل السعادة، لكنها من المختارين.

بهت قليلًا، أهي من قصت عليه ما حدث؟ هل يرى فعلًا؟

أردف (ثائر):

- صدقني، يمكن البحث عن السيدة التي داينتها بمبلغ الشقة، ألم تعده لها؟ أتذكر كيف كانت صحتها عندما أعدته بعد وفاة حنان؟

فجأة تذكر، كيف تعافت بهذه السرعة؟ بدا كمن يصدق ويخاف أن يصدق.

- اسمعني جيّدًا يا صالح، أنا مختار، أي أن لا عرض سيعرض عليّ ولأجله أقدم روحي، هذا ما فهمت للآن، مثل حنان تقريبًا، سأموت خلال أيام، ليست هذه الكارثة؛ فادي أيضًا، الفتاة التي قتلت بارديس اسمها عالية، أنا متأكد أنه لو آراني بارديس سأعرف أنها منهم؛ ومتأكد أنك لو سألت فادي ستعرف أنه يعاني الكوابيس والهلاوس والميول النفسية البشعة، انظر حتى كيف تحول؟

صمتا، ينظر (ثائر) لوجه (صالح) يتبين تصديقه، والآخر عينه بالأرض، كمن ذرا حد نابه فجأة.

دقائق كثيرة مرت حتى خرج (فادي) واجمًا هو الآخر، وقفا يدعمانه ببقايا الذهن الحاضر لديهما، يشعر بشيء غريب بهما ولا يستطيع الاهتمام، ويشعرا بوجوب اهتمامهما ولا يقدران...

بقي (فادي) مع والده مرافقًا، بينما اتجه الثنائي لمقر العمل، طلب (ثائر) أن يسجل بعض الحلقات ويأخذ راتبًا بسيطًا يكفيه بضعة أيام؛ وللغرابة؛ رق حال رب العمل وجعله يعمل للمساء بالتسجيل والإعادة.

عاد لمنزله منتشيًا؛ لديه نقود من العمل، سلفة سيخصمها رب عمله من راتبه حينما يموت بعد أيام، يفكر في (عاصم)، صديقيه، والده و(بارديس)...

هاتفه يرن ويجيبها بلهفة المشتاق لاهتمام أي شخص به، وصوت مرتجف يبكي يحدثه:

- أمي يا ثائر، أمي مريضة جدًّا، لم أستطع نقلها للمشفى؛ فحصها طبيب من أقاربنا، هل يمكنك المجيء؟

في منزلها استقبلته بهدوء ووجه حزين، تبعها لغرفة والدتها؛ تنام بلا حراك على فراش وثير لم يحلم بأن يرى مثله بالحقيقة، ورغم كل شيء مبهر لم يلتفت سوى لها.

اطمئنوا عليها، تمتمت ببعض الكلمات ثم غطت في نوم عميق إثر الدواء. وضحت (بارديس) حالتها، أصيبت بشيء شبيه بالشلل الكلي، لا تتحدث ولا تحرك أطراف يدها حتى، تئن فقط، لم يطمئنها الطبيب كلية؛ عليها إجراء عملية قريبة، وعليها الاهتمام بنفسيتها، لا زالت تعاني آثار الماضي.

جلسا بنظرات فارغة منها ومحدقة منه، عرضت أن تحضر القهوة فجأة وقامت، عادت مبتسمة، أعدت نفسها في المطبخ لتجامل مجيئه وينقلب الحزن، قالت: أعتذر عن وجهي المتجهم لقد حزنت اليوم بشدة، هجم عليّ الاكتئاب والخوف» قالتها مبتسمة بلطف.

رد بابتسامة مازحًا:

- منذ متى لست؟

تغيرت ابتسامتها المجاملة لابتسامة تنطق بالمشاعر:

- منذ عرفتك.

تنحنح قليلًا وهي أيضًا، رفع عينه متأملًا نظراتها الهاربة، ضاحكةً سخرت:

- لا تنظر هكذا، لا بد أن جاذبية المرة الأولى قد خفض وهجها.

رد بسرعة: «على العكس» ثم هدّأ من حماسه ملتمسًا الرزانة من عقله النزق، أردف: «كل مرة أراك، شيء جميل بك يبين أكثر»

محاولة دحض خجلها قالت:

- يبدو أننا سنبتسم اليوم ونضحك كثيرًا.

تحدثا قليلًا، أهداها أغنية تسمعها بوقت لاحق خلال حديثهما الرقيق. اشتعل برأسها شيء ما، قالت بلهفة:

- ثائر، لم تخبرني عن والدك الكثير، هل هو رجل جيّد؟ مثلا هل أحب والدتك؟

تراجعت ضحكته قليلًا، فرك يده وابتلع لعابه، قال بتوجس:

- أبي كان يكبر أمي بسنوات عدة، لا أعرف لماذا تأخر بالزواج؟ أعني بالنسبة لزمنه وقريته؛ ربما لأنه رجل صعب المعشر.

- هل كان يضربها؟

- لا أتذكر شيئًا عنها تقريبًا، ولا أريد.

- أتخاف؟

- لا أعرف صدقيني

امتلأت عينه بالحزن؛ فشعرت بالذنب وحاولت فتح أي مجال للترفيه ثانيةً، فحدثته عن صديقة لها عرفتها من فترة، قعيدة كأمها، قابلتها في المشفى، اسمها (عالية)، تعجب من الاسم، لكنه ما عتب أن ضحك لأن اسميهما يعتبران غريبين أيضًا.

تنهدت قائلة:

- صديقتي كالطفلة؛ دائمًا تنظر لكل مكان كأنها تستكشفه لأول مرة، كأنها تزور هذا العالم وتنبهر بما فيه؛ بينما أنا... أنظر

لكل مكان كأنني زرته مئات المرات، رغم أنها أول مرة، أنظر بازدراء كأنني أحفظ كل مكان وأكرهه، كأن لي ذكريات سيئة به.

- يمكنك إن شئت إغماض عينك وتخيل المشي في ممر جميل، جربيها الآن لثوان وخبريني ماذا صور خيالك؟

أغمضت عينها بقوة بحماس، فتحتها لتقابل حماسه بامتعاضة مرحة -من باب التظاهر- قائلة: «لم أر شيئًا»؛ خجل ثم بدلا الخجل بالضحك.

استأذنت أن تطمئن على والدتها وتعود، بينما غرق هو في سعادته المحدودة وقلقه الدائم، يتفقد مظهره الرديء، يتيقن من عدم تعرقه، ومن عدم إفساد شعره القصير، والذي لا يملك مجالًا للإفساد، لكنه التوتر الذي تصنعه مجابهة شاب ذي ظروف مخيبة أمام فتاة ثرية.

عادت بعد دقائق بابتسامتها التي لم تفارق المجلس، جلست أمامه محدقة هذه المرة، قالت بصوت خافت:

- القلب يخاف يا ثائر، يخاف الرحيل وكل شيء معلق هكذا.

بهت كمن لا يدرك كيف وصل الحديث لهذا الحد؟ حاول أن يثنيها عن أفكارها تلك فقاطعته بطلب غريب:

- أظن أن الملامسة دائمًا لها تأثير قوي كالسحر، كأننا ننقل طاقتنا لبعضنا البعض، بل نخلقها إن لم تكن لدينا؛ لنهديها

لمن نحب، سأطلب منك شيئًا، أغمض عينك ولا تتخيل، مد يدك، وأنا مثلك، أريد أن أعرف كيف سيكون؟

استجاب لها دون وعي كالمسحور، تلامست الأنامل المرتجفة أولًا ثم أمسكا ببعضهما البعض، توقفت الرجفة بيدهما، واشتعلت بقلبهما، أنفاسهما تعلو كمن يحارب لأجل قلبه، وقلبها يدق كما لو أنه سيخترق صدرهما، سحبت يدها بسرعة وضمتها للأخرى ثم قلبها ناظرة للأرض، وقف هو فجأة ثم قال:

- يجب أن أرحل، أستأذنك.

ثم غادر مسرعًا.

طوال الطريق يلوم نفسه، ألا يقدر رجل مثله أن يمسك أنفاسه؟ كيف يحب من لن تقبله؟ وإن قبلته، أمها لن تفعل؛ حسنًا هل سيتركه والده دون فضائح؟ كيف ستعيش معه وهو لا يملك جنيهًا ويضطر للتذلل لوالده؟

هي لن تقبل، وإن قبلت ورأت حياته ستتراجع ، وإن لم تفعل لن تحتمل يومًا واحدًا في حياة مثل حياته؛ وهو يجد صعوبة في تقبل الحياة معها، هل تموت والدتها فلا يردعها أحد؟ أم لها أعمام؟ فرك رأسه منزعجًا من نفسه على هذه الأفكار الشيطانية، استغفر الله ثم عاد للبيت المأجور بخطى سريعة.

الثامن من الشهر، وصلته رسالة من بارديس مساءً على الهاتف، تعلمه أنها تركت له مظروفًا أسفل الطاولة التي يجلسان عليها.

المقهى مغلق، إذا فقد تركتها منذ زمن أو أن الرسالة وصلته متأخرًا! في الصباح، تدلى للمقهى، طلب كوبًا من الشاي وأخذ الرسالة الملصقة أسفل الطاولة يقرؤها:

(عزيزي ثائر،

هذه رسالتي الأخيرة لك، أنا ذاهبة، راحلة عن هذا العالم، ولم أحب أن أودع أحدًا سواك، والدتي قد تغادر ليهتم بها أحد أقربائنا.

لقد كنت وحيدة دائمًا، كلؤلؤة العقد الوحيدة بلا زينة تجاورها، وأرجح أنني لو حصلت على إخوة لكنت أوسطهم حتى أفسد العقد، حتى التقيتك، ربما التقيتك قبل أن أخبرك، كنت حزينًا لأن أحدًا لم يكترث لوجودك، لكن أقسم في حضرتك يفقد الوجود وجوده. لقد اهتممت لأمرك منذ المرة الأولى التي رأيتك بها، وأتذكر المرة التي حركت بها تلك السكين، حركاتك المضطربة، نظراتك الطفولية التي تستكشف ما يستعصي عليها.

رغم حزني أرسلك الله لي بآخر أيامي، سراج صوتك يتوهج بنفق قلبي المظلم فيشرق، هذا أفضل من أي خيال خالجني يومًا، حبنا يا عزيزي كطفل صغير رزقنا الله به، لم ندر متى كبر

ومتى ازداد تعلقنا به؟ متى صار يافعًا ناضجًا؟ متى أراد الابتعاد أيضًا؟ وكيف أدرك أنه بلا روح دوننا؟ كذلك نحن.

أحلم بك كثيرًا، اليوم مثلًا حلمت أنك تراقصني، ترتدي حلة سوداء وأرتدي فستانًا أسود واسعًا، تلفني فيصنع دائرة من السعادة السوداء حولي، أترى؟ حتى السعادة سوداء، لكنها تأتي منك. سأرحل يا ثائر، لم يفهموني قط، حتى حينما سيرون الشق الطولي برسغي لن يفهموا السبب، ربما يسألونك عني، قل لهم لم يحبها أحد.

لا تلحق بي، لا تفعل عزيزي، أو افعلها إن سئمت مثلي، إن لم تحتمل العذاب أكثر؛ وأثق بقوتك وقلبك القوي. أعلم أن كلامي يحمل الكثير من الخلل، لكن أريد أن أخبرك، للمرة والأخيرة، أنا أحبك.

أطيب التحايا، وحتى لقاء قريب

صديقتك

بارديس)

ترك كوب الشاي يبرد وحده وانطلق بقلبه المفجوع باحثًا عن سيارة أجرة، حتى وإن دفع كل ما يملك؛ يريد أن يصل في التو ويمنعها، ربما تأخر، يكاد يجن، لقد تحسنت حالتها، متى ضعفت هكذا؟ ماذا جد؟ هل حبه السبب؟ هل حاولوا نبذها للزواج برجل ثري آخر؟ هل ضايقها أحد؟

رأسه المشتت لم ينسه الاتصال الذي كرره عشرات المرات طوال الطريق، ولا مجيب له! وصل منزلها وكاد ينسى أمر سيارة الأجرة، فناداه السائق، نقده بمبلغ لم يعه، ثم ركض للباب يطرقه كمن يحارب، بدا صوت نحيب يقترب، فتحت الباب والدتها منهارة، قالت بصوت مهتز: «ابنتي يا ثائر، ساعدني»

ركض للداخل باحثًا عن غرفتها حتى وجدها، ملقاة على الفراش المغطى بدمها، يداها مقطعتان كمن يتنقم منهما، تحسس نبضها ويدها، يحاول سد الفتحات، لكن بلا فائدة، أمسك هاتفه بيده المدماة، يحاول أن يجري مكالمة منه، بصعوبة استطاع بعد أن مسح يده بملابسه مرات عدة، نقل العنوان للإسعاف، ثم عاد لمحاولاته اليائسة، مازجًا دموعه بدمها، ودمها بملابسه وجلده...

تمت الدفنة بمقابر أقرب لمنزلها، هو ووالدتها وبعض الأقرباء، لم يخبر أحدًا، عاد لمنزله يجر قدميه بصعوبة، ناويًا الانتحار هو الآخر، إذ كيف يعيش وأمله الوحيد قد فقد؟ نظرات الجميع حوله إما خائف أو متحفز للهجوم أو مشفق؛ رجل ملطخ بالدماء يسير بينهم كالقتيل!

بالمسكن أمسك الحبل السميك الذي ابتاعه حين عودته، ربطه بمصباح معلق بمنتصف الغرفة، وقف على كرسي أسفلهم، صنع العقدة، لم يمنح نفسه وقتًا للتفكر ولفها حول جيده. ألقى الكرسي، فأمسكت يده الحبل من الأعلى، صدم رقبته بعنف شديد، سخر لخوفه من سقوط المصباح فلربما يؤذي رأسه.

بدأ بالاختناق، والحبل يهشم شيئًا برقبته رويدًا رويدًا، تهشم كمن يدعس الزجاج بأقدام حديدية، تفتته ولا تتأثر، ثار جسده فجأة، انتفضت قدمه باحثة عن مسند، ويده تحاول حل العقدة التي تضيق كلما حاول حلها، وتمسك الحبل لربما ترفع جسده قليلًا، وبعد ثوان مرت كساعات من التعذيب ارتكن طرف قدمه على أحد أطراف الفراش البعيدة، بالكاد تماسك حتى أبعد الحبل وسقط أرضًا، ولجميل حظه لم يسقط المصباح، لكنه صنع صدعًا بالحائط سيحاسب عليه بالتأكيد.

أمسك هاتفه يتصل بها، يرسل الرسائل المسجلة بصوت مبحوح، يتوسل أن ترد، يدعو الله أن يستيقظ، يشم الدماء بملابسه ويبكي، يسعل ويبكي، لماذا خانه جسده؟ ما الذي جعله يتمسك بالحياة بينما تعاقد معه على اللحاق بها؟

قلبه يحترق، كما لو أن عذاب العالم تجمع به، ورغم الاحتراق يشعر ببرد شديد، كأنه قطعة ثليج، يضرب الأرض بقبضة يده حينًا ويرتكن على الحائط صامتًا حينًا، يعاود الاتصال آملًا أن تحدث معجزة، يفكر أن ينبش قبرها ويخرجها وينقذها من ظنونهم أنها ماتت.

روحه تغادره دون انتحار، لقد مات، لا زال يتنفس رغم حنجرته الضعيفة وقلبه المشتعل، وجسده المتحرك، لكنه ميت، انتهى تمامًا...

وصل إلى منزله حاملًا بعض المأكولات الخفيفة، تعكر مزاجه فور رؤيته (عاصم) والذي قال: «عرفت ما رأت حنان» سمعها برأسه.

أومأ فقط بنظرات غاضبة متجهمة، قال:

- ألا تريد أن تعرف كيف تلاعبنا ووالدك بك؟

نظر إليه بمضد قائلًا:

- لا أريد شيئًا، وإن كان لا بد لك من قتلي فأريد أن أرى شخصًا آخر، رغم ذلك لا أريد منك شيئًا، لا عهد بيني وبينك.

ابتسامته الواثقة المثيرة للغضب لم تتغير، قال:

- إذا لم تدرك اللعبة، دعني أخبرك، لا وجود لهذا الشخص الذي تتحدث عنه، وهم هو أعني، أو هي.

ثار صارخًا بوجهه:

- أنت الوهم، لا أحد حقيقي مثلها، وإن كنت تريد أن تتلاعب بي الآن فلا ترهق نفسك، لن أذعن لك.

هجمت على رأسه أصوات فجأة، صراخ واستغاثات، صوت (بارديس) تناديه بصوتها الرقيق، كأنه يحمل وجهها المبتسم، لكنه تحول لضحكة صاخبة مخيفة، وتحولت كل الأصوات الأخرى...

أمسك رأسه جاثيًا، صرخ: «توقف، توقف!»

توقفت الأصوات وعاد الصوت ثانية:

- إن أردت الحقيقة عليك اتباعي، أنا لا أكذب، هي من خيالك، أو من خيال أحد غيرك أرسلها لرأسك.

هز رأسه نافيًا مرددًا:

- كاذب ملعون، حقير وكاذب.

- من غيرك رآها؟ عندما ذهبت لمنزلها فيما بعد من قابلك؟ فارغ أليس كذلك؟ أصدقاؤك وأبوك سمعوا عنها فقط، أين هي؟

وقف (ثائر) فجأة، قلب بين بعض حاجياته وأخرج رسائلها، قال:

- هذا دليل كاف.

لم يتحرك الرجل وكأنه يسخر من دليله؛ فتح أول مظروف فوجد ورقة بيضاء فارغة، جميعهم فارغون، هجم عليه ممسكًا بياقته:

- أين الرسائل؟ كيف أخفيتها؟

- لا أكذب عليك، اتبعني لتفهم، خدعة صنعناها مع والدك، قل مقلبًا، أأعجبك؟

- توقف عن الكذب أيها الحقير، لا أصدقك ولن.

- ولا تكذبني، لأنني لا أفعل، وتعلم أن ما أقول صحيح، للمرة الأخيرة اتبعني.

ثم التف خارجًا، تبعه (ثائر) ليكمل ثورته، لم يكد يتحدث حتى رأى جنازة، صديقاه وهو بينهما شارد، بحث عن (عاصم) ولم يجده، صرخ:

- أريد بارديس لا أريد والدي، أيها الحقير الكاذب.

اقترب لا إراديًا من القبر، حتى رآه خلف ملابسه البيضاء الأخيرة...

(طفل صغير يلعب بالأحجار بالشارع، يؤجر دراجات، تتسخ قمصانه ويبدلها بلا اكتراث، حيث لديه الكثير الكثير، ربما خمسة أو ستة، لكن بالنسبة للذكور هذا عدد لا بأس به، أب مهندس وأم ربة منزل ترعاه، حياته هي الضحك والبراءة، خوفه الوحيد أقرباؤه؛ رجل غني ضعيف الشخصية كوالده مطمع للجميع حتى إخوته.

هذا الطفل هو أنا (أحمد)، حياتي رائعة بكل بساطتها، أدرس وأتفوق، أحصل على المكافآت واللعب مع الجيران. حين أتممت الثالثة عشرة، أصيبت والدتي بالمرض الخبيث، نخاف ذكر اسمه، كأن من ينطق به يصيبه، بالبداية ظننت أمي نطقت به، لكن بسماعي كلمات الطبيب فهمت أنه مرض كأي مرض، لكنه مميت للأسف.

بقيت معها مرافقًا وأبي، نتحدث معها، أسمع صراخها صباحًا وأنينها ليلًا، كل شيء معد بجانبنا، سلة المهملات، العصائر، بعض الأدوية المهمة، المحاليل لا تنقطع عن يدها حتى فسدت أوردتها المحترقة؛ تركت الممرضات يدها وقدميها ولجأت لرقبتها لسحب الدم!

سنوات من العودة للمنزل والحجز بالمشفى، سنوات من وهم الشفاء وأمل الموت للراحة، بدأتها أمي بالحزن، وأنهتها مبتسمة كأن

انتصارها على المرض هو الرضا والسعادة، أبي كل ليلة يحتضنها، يقبل جبينها، بشكل ما قلت زياراته ومرافقته لنا، وبقيت معها، أذاكر وأجتهد أمامها لتسعد، وبدلًا من الجميع ألعب معها، حفظت الأدوية والعلاج وقررت أن ألتحق بالطب لأعالج كل من يعاني كأمي، دعوت اللّه أن تحيا حتى أنتهي منها وأنقذها، وقد كان سهلًا هذا الخيال بالنسبة لمراهق متهور مثلي.

في التاسعة عشرة، عدنا للمنزل، لم يعد الحال كالحال، البيت مهمل صاخب مليء بالمشاكل، أبي غاضب من الدنيا التي سرقت منه أمي، وأنا غاضب لوحدتي، لا أصدقاء حقيقيين، هذا ما تعلمته من أزمتي، ينتظرون سقوطك ليطعنوك، إن كان التخلي طعنة فقد طعنوني. بئس حالنا وأغرم أبي حتى ثقل كاهله؛ فقررت العمل بغض النظر عن رفضه.

أقرباؤنا لا يهتمون سوى بالثروة التي يظنون أننا نملكها، يعمل أبي كمهندس نهارًا ونادل ليلًا، هو ما عرفته صدفةً حين صرت نادلًا بنفس المكان ليلًا معه، وهو ما جعله يقلل الزيارات لوالدتي، إضافة لخوفه من ظفر رحيلها. هدأت خلافاتنا، وحّدتنا الضائقة المالية، بالمنزل ننم ونغتاب الزبائن، ويخبرني أبي غمزًا عن الفتيات الجميلات، أخجل أنا ثم أقطع تلك الفكرة عن رأسه، كيف لي أن أحب وأربط امرأة بجانبي دون زواج؟ ألست رجلًا؟ يفخر بي أبي، ثم يحمل همًا ثانية، كيف سأتزوج مع كل هذه الديون؟

ابتدأ العام الدراسي والتحقت بكلية العلوم، لم يتركني والدي للحزن؛ خبرني أن والدتي أرادت الالتحاق بها، ثم أنه يمكنني أن

أصبح عالمًا وأعالج المرضى أيضًا، كانت صعبة، خاصة مع عملي المسائي، لكنني اجتزت كل شيء الحمد للّه.

سنوات أخرى وأبي يتدهور، مذ ماتت والدتي وهو يذبل، حبهما الذي جعلني أرى الزواج والحب شيئين مقدسين، أو شيئًا واحدًا، أنبت في صدري حذرًا وحرصًا بخصوص هذه الأمور.

بالعام الأخير أنهينا التلي من الدين، وارتاح أبي كمن وُجد بالعالم لهذه المهمة فقط، سألته الراحة بالمنزل ولأبقي أنا على العمل، تمسك بالرفض مبدئيًا لكنني أقنعته؛ لم يعد هناك ما يجبرنا، حاجياتنا قليلة، هو مهندس وأنا نادل لحين تخرجي.

تخرجت وتقدمت لوظائف عدة، رغم فصاحتي ولباقتي لم يقبلوني، العمل يحتاج خبرة، أي سنوات من العمل، حسنًا من الذي يعطيني الخبرة؟

عملت كنادل اثنتا عشرة ساعة بدلًا من ثمانية؛ فأعمل منذ الصباح ثم أعود لأحضر الطعام، أتناوله مع والدي وأرجع لعملي.

في الثاني عشر من يناير

أنهيت العمل الصباحي وما كدت أغادر حتى رأيتها، بيضاء كالقمر، عينها عسلية، رغم الأمطار تسللت بعض أشعة الشمس لتضيء عينها فتأسرني، دلفت للمطبخ سريعًا مرتديًا ملابس العمل بين تعجب الجميع، أوقفت زميلي المتجه إليها وأمسكت قائمة الأطعمة والمشروبات، متجاهلًا أهلها وضعتها أمامها، لم ينظروا لي حتى، ولم يشكروني، تنحنحت قائلا لها:

- الأمطار غزيرة بالخارج، أنصحك بتناول هذا المشروب، نقدمه رائعًا، سيفيدك، هل تحتاجين المحارم؟

لم أنتظر ردها وهرعت لطاولة أخرى أسرق محارمها وأقدمها لها، رغم امتلاء طاولتها بهم، ركضت للداخل وعدت محملًا بزجاجات الماء كهدية من المقهى لهم، بالطبع الهدية مني، لكن كل هذا لتلتفت لي، وقد فعلت أخيرًا، طلبت المشروب الذي اقترحته مبتسمة؛ انفرجت شفاهي فاضحةً رعونتي، ثم دخلت ثانية، أوصي العامل أن يزين الكوب، أقترح بعض الإضافات، والتي بالطبع سأدفع ثمنها.

وقفت بجانب طاولتها أراقب الطاولات؛ ربما يحتاجني أحد، وبالطبع كنت أراقبها هي بكل حواسي، أنصت لصوتها، وأركز فيما تقول: «أبي، كلية كهذه لا أحبذها، أريد الالتحاق بالعلوم كصديقتي»، بدا والدها غير مقتنع، ولأننا مجتمع يهتم بالشهادة تدخلت سريعًا:

- سيدي لقد سمعت (كلية العلوم) صدفة، هل تلتحق ابنتك بها؟

رفع الرجل حاجبه اعتراضًا على التدخل، ثم رد بنبرة قوية ساخطة:

- لا لن تدخلها، ما شأنك؟

ردت هي ساترةً إحراجي بلا وعي:

- أبي، سأصبح عالمة، أتعلم سأعمل بالصيدلية إن أحببت، لكن لدي فرص أخرى.

قلت ثانية:

- معها حق ومعك حق، العمل صعب لخريج علوم، لكن كمظهر اجتماعي يمكنك الالتحاق بكلية أخرى، ماذا يا سيدي لو أنها التحقت بما تحب ولم تنجح به؟ اتركها تختار لتتحمل النتائج.

وبدا الرجل القوي مقتنعًا، بالطبع فقد دخلت له من مدخل العقاب والمسئولية، الذي يتبعه كل الغلاظ؛ تراجع معها قليلًا وصارت تتدلل وتستجدي موافقته، وفي كل مرة أشعر أن حديثها لي، ليس لفظًا، لكن شعورًا، وقد صار حقيقةً حين استنجدت بي لأنقذها متسائلةً إن كنت أعرف طالبًا بالكلية؛ ابتهجت وارتفع شأني فجأةً أمام نفسي؛ أنا بطل الآن، قلت:

- أنا خريج منها، منذ عام تقريبًا وهي...

قاطعني الوالد:

- أرأيت؟ هذه نهايتها، ستخدمين الناس.

أسررتها في نفسي متراجعًا، قلت بوهن:

- أعمل هنا بعد مرض والدتي الذي أنهى نقودنا، وحصلت على تقدير مرتفع رغم العمل بالمنزل والمقهى، سأحصل على عمل قريب سيدي، لكنني لن أجلس كالنساء أنتظره في بيتي.

وعدت أدراجي للداخل ألقي ملابس العمل، وأرتدي ملابسي التي تجعلني أشبههم، رجل عادي مثلهم، مغادرًا المكان دون الالتفات إليهم.

ابتعت الطعام الجاهز لضيق الوقت، وشردت بعينها المعلقة بي، هل أعجبت بي؟ تبدو صغيرة أعرف، لكنها جميلة، المرة الأولى التي أعجب لهذه الدرجة، هل هذا هو الحب الحقيقي؟ هل سنكون كأمي وأبي؟

قطع شرودي صوت والدي: «وأخيرًا، من هي؟»

ذعرت؛ أيبدو عليّ جليًا؟ تلعثمت قليلًا متهربًا بكلمات لا تُكوّن جملًا مفيدة، ابتسم ناظرًا للأعلى قائلًا:

- حين قابلت أمك للمرة الأولى شردت هكذا، أضعت أيامًا من الشرود والتخيل، هل تعرف؟ والدك ليس هينًا، لقد هامت فيّ تهيامًا، كما تهيم يا صغيري الآن، وأحسب أي فتاة تراك ستفعل.

لم أرد، تأملت اللاشيء وأنا أراها فيه، ثم نهضت لأتأمل ذاتي في المرآة، رجل معتدل البنيان، أسمر الوجه، نظرته حادة تحمل الهموم، والتي للمرة الأولى بدت هادئة تحمل بعضًا من الضوء. لا أظن أن بي ما يلفت أي امرأة، أنا رجل عادي، إن عاب الرجل قلة وسامة فقد عابني قبحي؛ وإن عابته قلة نقوده، فقد عابتني، من أنا لتنظر إلي؟

صباح اليوم التالي وجدتها وصديقةً لها، وجمتُ قليلًا، ثم دلفت أبدل ملابسي بغضب، كيف تخرج هكذا بدون أهلها؟

قدمت لها القائمة، طبعًا سألتني أن أختار لها، ابتهجت وانتهى غضبي في ثوانٍ، وتفننت في الاختيار وتزيين الاختيار. سمعتها تتحدث مع صديقتها، يتحاكون عن شاب ما، لا يعجبها لأنه بلا لحية!

أي هراء هذا؟ ثم تفحصت وجهي الأملس، تجول عيني المكان ولا ترى سوى فرصي القليلة لأعجبها، استدرت وكأنني أثبت أنها أيضًا لا تعجبني قائلًا بكبر:

أين والدك؟ أيصح أن تخرج فتاة جميلة مثلك مع صديقتها فقط؟

ابتلعت لعابي سريعًا؛ أفسدت الأمر والقسوة صارت لينًا، وقفت فجأةً كطالب أمام المعلم، تتلعثم وترد:

- أقسم لقد أخذت الإذن، أنا لا أخرج سوى بمعرفة والدي.

أمسكت صديقتها يدها وأجلستها، ثم نهرتني متسائلة عن شأني! عدت لمنزلي أعدُّ الصفات التي تعجبها، كل يوم تأتي ويزداد يقيني أن شعور الحب يخالجها تجاهي، ويخالجني.

بعد أسبوعين

وقفت أمام ملابسي، ثم ارتديت القميص الأزرق، لونها المفضل كما قالت، بنطالًا من الجينس الكحلي، شعري قصير كما تحب؛ هذا يعطي مظهر الجدية كما تعتقد. لا بأس بي.

تحضرت أمام أبي للذهاب إلى عملي، ابتسم لي بلؤم، قلت: «ماذا؟»

نظر أمامه بذات النظرة قائلًا: «ربيت لحيتك؟ واشتريت عطرًا جديدًا؟ لا شيء يا بني لا شيء»

تفلت منه الضحكات بين ثنايا حديثه؛ وتبدو عليّ الأناقة المبالغ فيها بالنسبة لنادل، حتى لو كنت مهندسًا كأبي لن أكترث هكذا.

انتظرت مجيئها بفارغ الصبر، جاءت مع والدها، قدمت لها القائمة كالعادة، واقترحت عليهما الفطور، ثم هرعت للداخل طالبًا الإذن لشراء شيء، كنت أتحجج فقط لتراني بملابسي العادية، أشبه رجل أحلامها حسب وصفها، ابتعت شيكولا مستوردة بكل ما أملك بمحفظتي، وعدت مبتسمًا، قدمت بثقة الشيكولا أمامهما واستأذنت لأجلس، بين نظراتها المعلقة السعيدة، وذهول والدها.

قلت: «سيدي، أريد زيارة منزلكم الكريم اليوم مساءً إن لم تكن مشغولاً، فقط اكتب لي العنوان هنا وسأحضر مع والدي». وضعت الورقة أمامه وقبل أن يرد بادرت: «إن لم تحبنا سيدي لا تستقبلنا ثانية، أرجوك اقبل الآن فقط وستعرف أن ابنتك في أيد أمينة»

كتبه وعدت للعمل مليئًا بالسعادة، أتوق للعودة لأخبر والدي بما فعلت.

أحبنا الرجل وانبهر بشخصية أبي واحترامه لي ولأمي، والذي بالطبع مدحني كثيرًا أمام الرجل ممنيًا إياه بحصولي على عمل قريب، وامتلاك سكن قريب أيضًا.

تمت الخطوبة مع الاستعداد للزواج خلال سنوات، تكمل دراستها ثم نتزوج؛ لكن القدر لم يمنحنا تلك الفرصة، توفي والدها واغتمّت؛ وخلال ثلاثة أشهر تزوجت والدتها برجل كالشيطان، جعل الأم ترصد لها الأخطاء وتراوغها لترحل؛ فاتفقنا على الزواج، لكن للأسف

ستعيش معنا بمنزل والدي، وهذا يجعلني أشفق عليها؛ تستحق الحياة الكريمة والخصوصية، لا أحد من أهلها يسأل عنها وأهلي لا يسألون، فقط إن قابلونا على الدرج يلقون سمومهم لتزعجها وتزعجني؛ يد أبي الحانية ربتت على كتفها كوالدها المتوفى؛ وأنا الذي حملت هموم عملين في آن واحد حاولت أيضًا أن أعوضها.

وجدت عملًا بمعمل للتحاليل بمبلغ زهيد، لكنني لم أستطع الفصال؛ فأنا بحاجة لأي سند، وعملي كنادل عاد لثمان ساعات كالسابق براتب أعلى لخبرتي، ومساندة من رب العمل.

مرت سنتان، هدأ القلق وانقضت الخلافات، كل شيء أصبح رائعًا واعتدنا على حياتنا الجديدة، متناسيين كل ما مضى، إنه الجزء الأفضل في حياتي، وأفضل منه ذلك اليوم الذي أزفت لي بشرى حملها بابننا الأول، الآن سنخرس أصوات الأقارب المنزعجين، إن ضايقها أحدهم سأفقأ عينه بحملها.

طار أبي بحفيده وانهمك في عمله يشتري له الملابس، اشترى ما يناسب الإناث والذكور -تحسبًا- دون صبر؛ وأنا ضبطت مواعيد عملي لأتابع حالتها الصحية مع الطبيب، والتي -للأسف- كانت سيئة، تحتاج مبالغ مالية للعناية بها.

الحال يضيق ويفرج، أبي يدعو لنا، وهي كل يوم تحدث صغيرنا، تعده بكل أحلامها وآمالها، تعده حبنا وأن نصبح له قدوة خيرة.

بالشهر الرابع توفي والدي، لم يمرض ولم يبد أي مقدمات، فقط أمراض كبار السن المزمنة، لا شيء يدعو للموت، لكنه مات، ومع موته انهار كل شيء...

هجم علينا الأقارب يطالبوننا بإيجار شقتنا، ذهلت لأسباب عدة؛ لتوه ميت أبي ويطالبونني بالنقود؟ ومن قال إن بيتنا مأجور؟ نمتلكه منذ عقود.

وفجعت بمعرفتي الحقيقة، باع والدي المنزل بثمن بخس لعلاج والدتي، ثم وقع عقد إيجار أغلى مما يجب دفعه، وخلال الشهرين الأخيرين لم يستطع الدفع مؤجلًا، بالطبع اهتم بصحة زوجتي وتلهفه على الحفيد الذي لن يراه، ونسي الدفع.

حسبت أموال الشهرين ودفعتهما، وللأسف تزامن الأمر مع نهاية العقد، وقد رفضوا تجديده؛ إذلالًا لي ولذكرى أبي الشريف.

لملمت حاجياتي مع زوجتي خلال يومين كما قالا، ماذا أفعل للمسكينة؟ أأخذتها من بيتها لتذل؟ ما ذنبها؟ أأنها حادثتني بطريقي؟

تمسك ذراعي وأمسك بها، تبكي وأبكي، وأخمد احتراقي وبكائي جبرًا أمامها، ما أصعب قهر الرجال!

سرنا بالطريق نبحث عن مكان للمبيت، كل شيء باهظ الثمن، قررنا المكوث بفندق ليومين بمبلغ مرتفع حتى أجد محلًا مناسبًا.

لا وقت لحزني على أبي أو زوجتي التي تحتاج مراعاة، لا وقت للعمل، أبحث وأبحث، حتى نهاية اليوم الثاني قبيل مغادرتنا الفندق، اصطدمت برجل كفيف يطلب عبور الطريق، أمسكت يده وما إن أمسكتها حتى سألني عن رجل يبحث عن عمل مع مسكن، أي رجل فقير، سألته متلهفًا عن الأمر، وعلم أنني أحتاجه، طلب أن أتبعه وقد فعلت.

المقابر، بيت على طرف المقابر، العمل هو دفن الموتى، والمنزل هو غرفتان! دلفت بقلب منهار، غرفة داخلية بها خزانة ملابس ومكتب صغير وسرير، والخارجية بها سرير صغير يمكن أن يصبح مقعدًا للضيوف، ثلاثة مقاعد مفرقة، أحدهم بالطبع للغرفة الداخلية، كومود صغير بكل غرفة، بعض الأجهزة الخاصة بالمطبخ لكن مصغرة، وحجرة استحمام صغيرة وضيقة.

أتجلس زوجتي المرفهة هنا؟ أموالي تكفي علاجها ونفقتها الحالية، والمستقبل مظلم بالنسبة إليّ؛ وافقته ثم عدت منكس الرأس، ذليلًا آمامها خجلًا من مصارحتها، كانت مستلقية على فراش وثير، تدّعي الرضا وتنظر إلي برفق، مشفقةً على حالي الرث، أمسكت يدها ناظرًا للأرض، قلت: «حبيبتي، وجدت شيئًا، ليس كما نتخيل، ليس حتى كأسوأ الاحتمالات، لكنه يظل مسكنًا»

ابتلعت ريقي، لا أستطيع التلفظ، سالت دمعة من مئات الدموع القابعة بعيني، لم تجد لنفسها مفرًا سوى الهرب من التكدس، أردفت بصوت متحشرج: «بيت بين المقابر، أنا أعتذر، أعتذر سامحيني»، ثم أجهشت بالبكاء وانتحبت، وأجهشت مائلة برأسها على رأسي المنكس، وضاغطة بيدها على يدي، مرت دقائق على هذا الحال حتى قالت: «سييسرها الله، متى نذهب؟ الآن؟»

رفعت رأسي ناظرًا لعينها الحمراء، ثم أومأت.

أسندتها لأغسل وجهها ووجهي، قبلت جبينها، بيدي الأخرى حملت الحقائب جارًا إياها للأسفل.

عندما رأت الكفيف لفت ذراعيها حول ذراعي توجسًا، همست لي: «هل هذا هو؟»؛ ربما أرادت أن تخبرني أنها خائفة، لكن لا يمكنها الضغط عليّ أكثر من هذا. ذهبنا معه برؤوس منكسة خائفة، قلوب واجفة وأرواح مسجورة...

مرت أشهر وقد ازداد الخصم من راتبي، حيث عليّ العودة من أجل الدفن دائمًا، اضطربت مواعيدي وساءت حالتي المادية أكثر، بعت ملابسي الجيدة واحتفظت بأطمار لا تساوي قروشًا، ادعيت الجهل مخافة الإشفاق والتشفي، الذي لا مبرر له لكنني وجدته بأول عملي هنا.

وضعت زوجتي الطفل، يشبهني للأسف، عينه فقط كعين أمه، وهذا أجمل ما فيه، وضعته بين المقابر حيث أحضرت الطبيب فجأة للمنزل؛ إذ كيف أسير بها حتى نصل للطريق ثم أوقف سيارة؟

احتضنته واحتضنتها وتركت الجنين معها تتأمله وتبكي، وخرجت للغرفة الخارجية أبكي، أتذل زوجتي وابني معًا؟ أهكذا يولد ابننا؟ أهنا يعيش؟ هذا ما يقولون عنه قهر الرجال وكمدهم، هو القهر في قلبي، الفقر في جيبي، والشعر الأبيض الذي يتسلل بين شعري يومًا بعد يوم، هدأت من نفسي قليلًا، ودلفت للغرفة حتى لا أتركها، مسحت بيدي على رأسها، ثم قبلتها وقبلت الجنين، أخرجت ملابسه التي اشتراها والدي مدللًا، انظر يا بني هذه ملابسك، وهناك ملابس أختك أيضًا.

قالت بوهن:

- يا إلهي! هل تريد أن أمر بهذا الأمر ثانية؟

قلت مدللًا إياها أيضًا وممسدًا شعرها:

- لن أقبل إلا بطفل يشبهك تمامًا، أريدك في كل شيء، حتى أطفالنا.

تبسمت برفق ثم نظرت للطفل قائلة:

- انظر كم هو صغير وجميل! هل لديك اسم؟

رغم كثرة الأسماء برأسي ادعيت أنني لم أفكر قط بالأمر، قالت:

- سأسميه ثائرًا، ربما يثور لفقراء العالم فيما بعد.

ضحكت قائلًا:

- حبيبتي الثائرة أصبحت بطلة تنجب الأبطال.

لم نعلم كيف نعتني بطفل؟ نرتجل حينًا ونذهب للطبيب أحيانًا، والنقود كأنما تختفي، لكنني دائمًا خائف، خائف عليها وعلى الطفل، خائف من تقصيري، يكفي حالنا الوضيع هذا... النقود تنفد، زوجتي تنتظر حاجيات السوق لنعد الطعام سويًا، أعد كل ما أملك، لن يكفينا، مأزق بشع أوقعتنا به الظروف، ابتعت بعض الأشياء البسيطة التي اعتدنا عليها مؤخرًا، وعدت حرجًا واهنًا.

لقد تغيرتُ، وتغيرت زوجتي، ضعف وجهي وشحب، نقص وزني للنصف، صرت كالجثة، إن كان بي بعض الجاذبية التي أحبتني لأجلها، فقد فقدتها! السبب الوحيد الذي يبقي سيدة جميلة مثلها معي هو اللاسكن الذي تملكه.

دلفت للمنزل متعرقًا، وقابلتني بابتسامة لا أعرف أشفقة أم لا زالت تحبني؟ لقد أفسدتُ حاضرها ومستقبلها ومستقبل أبنائنا، من ترضى بذلك؟

وكأنها شعرت بما أفكر، فدنت مني قائلة: «أنا أحبك جدًا، وأعلم أن كل هذا سيمر، لا تحزن هكذا زوجي العزيز»، احتضنتي وأحضرت ابننا لأحتضنه أيضًا.

في المساء نامت والطفل، أعلم أنه يزيد إرهاقها ضعفًا، وأعلم أنها تشكو كثيرًا، ليس تلفظًا، الكثير من الأشياء تتحدث غير اللسان، وأعذرها بالطبع، ولا أعذرني.

جلست على البسطة أمام الباب مستنشقًا هواء الليل المريح، لماذا لم أعد أتذكر أيام الرخاء؟ وإن تذكرت يومًا، يؤذيني لأنها تذكرني باستحالة حالي للفقر المدقع، الذاكرة دائمًا تخون، حتى حين تتذكر، تتذكر لتخون.

رأيته مقبلًا من بعيد، هممت أمسك بيده ليجلس بجواري، السيد (عمران) الكفيف. قال: «لديّ لك عمل، لن تغادر المكان، هذه الأمانة احفظها تحت التراب بالقرب من أحد القبور، مبلغ مالي كبير يخاف عليه صاحبه، واستأمنني عليه، بالطبع لا أحد يسرق القبور، خاصة بوجود حارس أمين مثلك»

لم يرق الأمر لي بداية، حتى خبرني أنه سيدفع ألفي جنيه شهريًا إحقاقًا لحفاظي على المبلغ، والذي من الواضح أنه عظيم، قدم لي النقود مقدمًا وذهب.

دلفت للمنزل سعيدًا، سمعت بكاء الرضيع فحملته للخارج حتى لا يوقظ والدته، مهدهدًا ومبشرًا إياه كمن يفهم، يبدو أن المال سيعود يا بني، وربما ندّخر ونعود للحياة كالبشر.

في الصباح خبرت زوجتي والتي لم تقنع بهذا، ولم تقنع بخير هذا الرجل من البداية، لكنني هدأتها وطمأنتها بحذري الشديد.

مرت أشهر والرجل يتردد علي، تغيرت مطالبه بالوقت وخلال أعوام يكبر فيها ابني، مثلًا طلب أن أحضر له ثلاثة أسنان من طفل مدفون اليوم، سيتم زرعهم لطفل آخر مقابل سبعة آلاف جنيهًا، رائع أليس كذلك؟ مخيف أيضًا، وأخاف بأس الله مقابل كل هذا. لم أخبر زوجتي، خبرتها أنها أمانات أخرى.

حملت زوجتي للمرة الثانية، وقررت مع هذه المرة أن أترك هذا المكان، لكن الرجل لم يدعني أغادر، لا زالت الأمانات لدي، عليّ الانتظار عامًا آخر، أنجبت زوجتي طفلة، يداعبها ابننا ويهتم بها، كرجل من ظهر رجل من ظهر رجل تربوا جميعًا ألا يكونوا سوى رجال يعتمد عليهم.

ضاق بزوجتي الحال، لم تعد تصبر لننتقل، وخبرت الرجل أنني سأنتقل خلال أشهر لا مفر، عليه أن يجد غيري يحمل النقود أو تعود إليه، لم يعد الأمر من شأني، لم يعجبه الوضع لكنه وافق عارضًا مساعدة كبيرة جدًا، سأدفن بعض الأموال الأخرى وسيهتم بها، وسأقرأ بعض المقالات في كتاب لديه وألخصها، حيث كل ملخص له مقابل ألفان، كذلك كل دفن نفس المقابل؛ ابتهجت بالطبع فهذا سيساعدني للتنقل بيسر حتى أجد عملًا.

دبرت مع زوجتي الأمر، سنؤجر شقة صغيرة، وسأتقدم للعمل بشركات عدة ومعامل التحاليل، وحتى أبحث عن وظيفة النادل ثانية، أي شيء، لكن علينا أن نعود كالبشر. زوجتي كادت تجن؛ لا تخرج لا ترى الناس، وأطفالنا كذلك، نادرًا ما أخرجهم، خاصةً ببداية معيشتنا بهذا المنزل القبري، مؤخرًا فقط بدأت أفعل، خاصة مع كبر سن الأطفال قليلًا.

في إحدى الليالي رأيت كابوسًا بشعًا، أن الأموات غاضبون مني، قصصت لزوجتي وسألتني إن كنت قد فعلت شيئًا مع هذا العمران، لا أعلم كيف عرفت؟ لكنني اعترفت لها، صرخت هائجة:

- أتريد أن يتربى أبناؤنا من الحرام؟ أتلعننا ونحن أحياء؟ علينا المغادرة، عليك إخراج هذه الأشياء كلها والتوبة.

خفت أيضًا، كيف للمتعلم المثقف أن يصدق في هذه الأشياء؟ كيف تغيرت؟ في الصباح أخرجت النقود المدفونة، فتحت الأكياس السوداء وإذا بها ليست نقودًا، إنها أعمال سحر! لملمتها جميعًا مودعًا زوجتي دون إخبارها بأي شيء. في مسجد قريب، وضعت الأشياء أمام شيخ وقصصت له ما حدث، عنفني كثيرًا وخبرني أنه سيقرأ القرآن ويحاول إبطال هذه اللعنات، ونصحني أن أبتعد.

عدت للمنزل بسرعة لأحضر حقائبنا ونغادر في أسرع وقت ممكن، التقيته عند المدخل، يقف بمظهر شامخ مخيف، قال:

- لا شيء بلا ثمن، والغدر له ثمن كبير.

لم أرد، رمقته بغضب ومشيت للمنزل، أبنائي يبكون، حضرت لهما الطعام وأيقظت والدتهما النائمة، والتي علمت أن بها علةً ما، واهنة هي لا تقوى على الحركة أو تناول الطعام، أطعمتها كابنينا، أسندت رأسها عليّ ونامت ثانية.

أمرت الطفلين أن يلزما المنزل حتى تستيقظ والدتهما، وأخذت أقرأ القرآن بتلعثم يجعلني أخطئ وأكرر الآيات مئات المرات حتى ألفظها صحيحة، وربما لم أستطع بالنهاية! في المساء فتحت عينها بضعف، نظرت إليّ بصعوبة وأنا أحاول طمأنتها، همسَت:

- الألم في صدري شديد، سأموت اليوم، سأموت.

ضممتها بشدة نافيًا قولها؛ كيف تموت وقد كانت بخير؟ قلت:

- بم تشعرين؟ نذهب للطبيب؟ هل يمكنك السير معي بضعة أمتار فقط؟

- ألم شديد في جسدي، لا أستطيع التنفس، إن حياتي تنتهي الآن، سامحني على أي خطأ بدر مني، واهتم بطفلينا أرجوك..

لم تترك لي الفرصة لأفهم، تتعرق بين يدي وتشعر بالبرد، يرتجف جسدها، ربما أصابها البرد؟ لكن هذا أمر جلل، تنزع أمامي ولا أقوى على مساندتها، يدها تمسك بذراعي، أو فقط تلامسه لقوتها المحدودة، وأمسك بها مناديًا الحياة أن تبقيها معي، وسائلًا الموت أن يتركها، ارتفع صوت أنفاسها، تحاول جاهدة الحصول على الأكسجين، تنظر أمامها كمن يرى أحدًا، ألتف ولا أجد سوى الطفلين نائمين بالغرفة الأخرى، لكن عينها لا تنظر لهما...

قلت هلعًا:

- حبيبتي، انظري لوجهي، ستعيشين، أنت بخير يا حبيبتي، لا تقلقي وتقلقيني أرجوك، أرجوك يا جميلتي!

رفعت رأسها متقيئة الطعام الذي أطعمته إياها منذ سويعات، أغمضت عينها فاقدة الوعي، ولا زالت أنفاسها تنازع حتى فاضت أنفاسها أمامي...

لم أدرك ولم أع ما حدث، هل ماتت زوجتي؟ هل تركتني؟ بأي ذنب تموت؟ هل كثرة الهموم؟ كنا سنتخلص منها؛ هل هو وعيده؟ هو من قتلها؟ يا إلهي! كانت على حق، هو قتلها. انهرت باكيًا أرجوها أن تفيق، أن تتنفس ثانية، أن تمنحني الوقت أركض للطبيب، أن يعود الزمن وأدلف المنزل مع الطبيب مقدمًا، أن أموت أنا لا هي.

ألا ينتظر الموت قليلًا؟ فقط يعيدها سنة، تكمل بعضا من دراستها وتموت بمنزلنا الهادئ الجميل؟ ألا يمنحنا يومًا تذوق فيه الموت على فراش وثير؟

لقد ماتت، كيف سنعيش؟

أثرت صدمتي على علاقتي بالجميع، حتى أبنائي، والجميع هم البشر، يطلبون العمل مني بمهانة ولا يمكنني التعبير عن بغضي لهم، لماذا من الصعب الصياح بوجههم: (أنا أكرهكم ولن أبتسم، وسأنهي العمل بوجهي الغاضب هذا، هاتوا ما عندكم)

ألا يمكن أن يكون الوضوح مريحًا؟ بالطبع لا، لتحيا عليك تعلم النفاق وقتل النفس، وأد ألم قلبك وادعاء السعادة.

خلال أشهر قليلة انهارت حالتنا المادية ثانية، كنت كالميت، ألعب مع أبنائي، وأعلمهم بعض الأشياء الجديدة، أذل للغرباء حين أغرق بالغبار وكلمات الإهانة، أصبحت رجلًا بنصف عين؛ عيني غير مفتوحة كليةً كأنما تتهرب من النظر للعالم، شهيتي تنقطع باستمرار، لقد مت، هل من رثاء لشقي مثلي؟ ومن أنا ليراني الناس؟

عاد (عمران) شامتًا، عينه البيضاء تناظرني بشماتة بالغة، ومضد لا أقابله سوى بالإذعان، طلب مني الكثير من الأعمال السابقة، بل وزاد الأمر بشاعة...

مع الوقت استعاد وضعي المالي عافيته وكبر أبنائي قليلًا، يفهمون العالم الآن، طلبت منه طلبي الأول -حسب ظني- أن يوجِد سعادةً بقلوب أبنائي ويغشيهم عن همنا، وافق بسخرية، يخبرني أنه قدم لي الملايين من الهبات، هذه أول هبة تُطلب لفظًا.

عاش أبنائي بوهم السعادة، حتى بلغت ابنتي مبلغ المراهقة، وابني صار رجلًا بسن مبكر، رغم كل السعادة التي منحتهما إياها، إلا أنني قدمت لهما كرههما لي، عاملتهما بجفاء، كل منهما يظنني أحب الآخر فقط، الفتاة تعمل بالمنزل والفتى يبحث عن عمل لأنني لا أريده، أحيانًا أضربه بلا سبب فقط لأجعله يبتعد؛ أردت أن أثبت لعمران أن أبنائي ليسوا بتلك الأهمية التي امتلكتها والدتهم، قلبي يتمزق لكنها الوسيلة التي صورها فؤادي لحمايتهما، إظهار الكره واللااكتراث.

كبرت ابنتي ولم أفهم كيف أتعامل معها، أعلم جيدًا عن ابني فقد كنت مثله، وللأسف دمرتهما خلال هذه الفترة، سقطت ثقتهما بنفسهما، زاد التمرد، والذي يهدأ سريعًا بسبب الغشاوة على عينهما.

إلهام برأسي ساعدني على الاهتمام بفتاتي الناضجة وابني الشاب، والذي ما يلبث أن يحول إلى السخط متى أتى (عمران).

في ذاك اليوم طلب ما لم ولن أقبله أبدًا، لنقل لما أقبله، ولنقل أمرني، الأمر هو قتل رجل، إرسال أحد أتباعه إليه ليموت الرجل مقابل هبة للتابع، لم أفهم جيدًا لكنني بالتأكيد رفضت بشدة، وتعنت برفضي، غضب قائلا: «ستندم»

هرعت للخارج أنتظر أبنائي على الطريق، حتى أنني لم أنتظر، سرت بالطرقات حتى محل دراستهما، وعدت أعض أناملي خوفًا، رأيت ابنتي، تبكي بحرقة، كيف علم أنني لا زلت أحبهما؟ هل حرق قلب صغيرتي؟

لقد أزاح الغشاوة عن عينهما، الآن يعيش أبنائي معي في هذا الحزن، وصل ابني للجامعة، كانت أمه لتبتهج بهذا الأمر، ورغم بهجتي الشديدة وبختة بعنف، دبرت الأموال الآتية من العمل السيئ لأوفر السكن له، ولم أقو على طرد ابنتي مثله، أيقسو عليها العالم أيضًا؟ هي فتاة بريئة لينة، لا زالت صغيرة، كيف أجسر على تركها؟

كل ليلة أبكي، قلبي يبكي، وتمتلئ روحي بالأدمع الملتهبة، تجري بأوردتي تحرقها كالسرطان الذي قتل والدتي، والدتي! بيتنا البعيد، أبي، زوجتي، لماذا لا تمنحنا الحياة فرصة؟ كلما ابتسمنا انهار كل شيء، لماذا؟

عرفت لم يسجننا آباؤنا مانعينا عن العالم؟ خافوا أن تغير بشاعة الدنيا نقاءنا، لكن فهمناها، وصرنا أسوأ من بها، الحق معهم بالتأكيد، لكن كان لزامًا أن نعلم، أن نستوعب القادم، خافوا رغم علمهم أن اليوم الذي سنسقط فيه بين براثن مخاوفهم آت لا محالة؛ وقد فعلت مثلهم، خفت على أبنائي وأبعدتهم، يومًا بعد يوم يقتربان من الحقيقة، ستتجلى أمامهما وتفصح عن والدهما دنس الثياب.

لم يحدثني عن أمر القتل ثانية، لكن طفلي الكبيرين صارا يكرهانني، يؤلم قلبي كرههما وادعاء الغضب، لكنه الحماية الوحيدة. ابني ناعم الظفر وابنتي شابة جميلة، يستحقان ما هو أفضل، لذلك قررت العمل على الهرب ثانية، أن أضحي بحياتي هذه المرة إن تطلب الأمر، وكأن هذا الرجل يقرأ أفكاري، قدم إلي بعد هذه السنوات يعيد علي الطلب، القتل، هذه المرة علي اختيار عدد معين، وهم سيختارون الباقين، المهم أن المجمل تسعة، يموتون خلال هذا العام.

لا مفر للتراجع، شيء بداخلي يخبرنني أنني أحدهم، وهذا نوعًا ما يريحني، إذ سيتحرر طفليّ أخيرًا.

كشف عن عيني غطاء لا أعرف كيف، لكنني أسير بالشوارع أنظر للأشخاص وأعرف مآزقهم، اخترت بالبداية شابة تحتضر والدتها، تود لو تفديها بروحها، وهو ما سيكون، يتم إرسال أحد الأتباع يتقرب منها، تقرأ شيئًا ما لا أعلم ما علاقته بالأمر، ثم تهب نفسها لهم، تمر بالعديد من الهلوسات والكوابيس، وتنتهي بنوبة قلبية كحبيبتي التي غدروا بها وبي.

لا أعلم متى سيذهب التابع ومتى ستموت، لكنني بشكل ما رأيتها ورأيت ما سيحدث...

ليال من الفزع، صوت ابنتي يفقدني صوابي، الطيور، المكالمات الهاتفية، كل صوت وكل شيء يروعني، أستيقظ بعد دقائق من نومي متعرقًا، أنا قاتل، عقلي مليء بالأسئلة والمخاوف، وخوفي على إرث زوجتي أهم شيء، ثائر وحنان.

مرت أسابيع حتى خرجت من المنزل، وهنا رأيت الأمر يتكرر، أنظر للشخص فأشعر بأنني على علم بكل ما يجول بخاطره، هذه المرة قررت العناية بالاختيار، شاب مقبل على الموت، ينتحر ببطء والموت راحته، سيدة عجوز تعاني وتعذبها الوحدة، ستموت أيضًا في كل الأحوال وتتوق للسعادة بآخر أيامها، هكذا أعدت توجيه خياراتي، والتي لم ترح قلبي، عينه الجشعة تخبرني أن لا شيء يكفيه.

الأمر برمته يذكرني بأسطورة قديمة قرأت عنها أيام الجامعة، أسطورة فاوستوس، أو دكتور فاوست، الذي يمنحه الشيطان الكثير مقابل روحه، والتساؤل الحقيقي، هل ما يعطينا إياه حقيقي؟ هل ما أراه هو الحقيقة؟ أم أنه يرضيني بما أرى ويوهمني لأتبعه؟

يعلم اختياراتي قبل أن أخبره، وكأن عقلي ما إن يختار شخصًا ما يرسله إليه ببريد ذهني خُلق بعالمه. قررت أن أنهي مأساتي، لن أصبح فاوستوس، أعلم من هو، من يكون، هيئته هذه بشرية لن تجعله قويًا كفاية لمقاومتي، سأصبح قاتلًا بحق، وسيكون هو القتيل.

وقفت أمام مدخل المقابر منتظرًا إياه، بيدي سكين أخفيها، أعلم أنه سيأتي، بالطبع فمطالبه لا تنتهي والنقود التي يقدمها كذلك. أتى، وقف بعيدًا ضاحكًا، يسخر مني، إذًا يعرف! ركضت نحوه لأباغته فباغتني هو بألم شديد في رأسي، سقطت إثره، هناك انفجار، بركان حار يشتعل، أشعر بحركته المريعة داخل رأسي، تكاد تنفجر، وسمعت صوته برأسي يخبرني بلؤم، أن جسدنا بشري لكن ذهننا متفاوت، ثم أوقعني في أسوأ الأقدار، الظلام الذي تراه عيني المغلقة، حال لابنتي تحتضر بين يدي، تبكي لأنها تحب وتحتضر، وابني يبكي لحبه، يقطع يده أحيانًا ويحاول الانتحار، لا، إلا ثروتي الوحيدة، إلا هما...

أخرجت صوتي بصعوبة:

- أنا، خذني بدلاً منهما أرجوك.

انحنى ليواجه وجهه وجهي المنكمش تألمًا، قال:

- من قال أنك ستنجو؟ لكن سأقتلهما بالحب الذي جعلك بهذا الضعف أمامي.

ضحك راحلًا واختفى في الظلام كجزء منه، تاركًا إياي جاثيًا تكاد تنفجر عيني من البكاء، ألم رأسي لا يعد شيئًا مقابل ألمي وهلعي على أبنائي.

بالفعل رأيتهما، ابنتي تقابل شابًا وتحبه، علمت فيما بعد أنه صالح صديق ثائر، الشاب جيد ورائع، تحججت بمئات الحجج، بهتت ابنتي وساءت حالتها أمامي، وقبيل وفاتها علمت الحقيقة مني، صارحتها وضممتها لصدري، تبكي وتردد أنها تحبه وتريده، لم أنم جيدًا، طوال

الليل تتشنج بين يدي، ماذا فعلت بطفلتي؟ تذرف دموعها رغم النوم، أو أنها لم تنم ولا أعلم، لا أعرف أبدًا.

لم أدر ما حدث، متى نمت؟ وكيف استيقظت بعد موتها؟ ماتت طفلتي كوالدتها بين يدي، نوبة قلبية، هززتها لترد، لا أنفاس لا دقات قلب، أهمس بأذنها وأصرخ، لا تصحو، لا ترد علي. التفت طلبًا للمساعدة من المجهول فرأيت ابني، كشبح يشاهدني، محاط بمئات الظلال السوداء المخيفة، صعقت أكثر، قلت متحسرًا: «لا بني، لماذا؟»

نظرت لفقيدتي ثم إليه ثانية لكنه اختفى، وغرقت في مصابي بلا حول أو قوة، أتفوه بجملة واحدة: «إنه ذنبي»

طوال الوقت أشعر بالظلال حولي، بعيدة عن ابني وهذا المهم، يخرج أحيانًا ويعود، أنهره مقاومًا انهياري حتى يبتعد الملعون عنه، لا زالت خطتي البائسة قائمة.

في هذا اليوم أتاني الملعون، يخبرني أن ابني الآن يسير على خطى أخته، لكنه سيكرمني بأنه لن يموت الآن، وربما لن يفعل به هذا؛ ليسجنه بدلًا مني يكمل عملي، رأيته يجلس مع فتاة ما، لا شيء واضح، فقط أرى وجهه يتحدث مع أحدهم، أفهم أنه يتحدث مع فتاة يحبها.

هددته وتوسلت أن يتركه، فأجاب باستخفاف:

- أيها الجاحد، قاس ما قلت، لقد نويت لك الخير فقط، أنت تعبت وأنا أريحك.

ثم ذهب تاركًا شبحه في عقلي يكرر كلماته، وجهه كظل الحجر، لا أطيقه، وصوته يمكنه إزعاج أكثر الكائنات إزعاجًا بالنسبة لي.

علمت أنني قرأت الكتاب، وقراءتي تعني أنني الآن ملزم بتسليم روحي، الورقة الأولى التي لم أقرأها هي المشكلة، تخبر كل شيء، هم قبيلة من عالم آخر، عالم الجن، أسماؤهم تبدأ بحرف العين ويغيرونها فيما بعد لتليق بأسمائنا. يتوغلون بيننا، لديهم مشكلة واحدة، أن تحولهم غير كامل، وقد توصلوا لحل واحد، ليصبح الكائن منهم كاملًا، عليه التغذي على روح إنسان، لم أفهم كيف يتغذون عليها كلية؟ لكن خالجني شعور أنني أفهم.

كتبت ورقة لابني وأخفيتها بعصا والدي القديمة المكسورة، ثم ألصقت العصا على أمل تنبيه ولدي بعد رحيلي.

عاد ابني فطردته، ليعد إلى سكنه حتى لا يقابل هذا الحقير، أكسر ابني بيدي حتى لا يقع بيده. وأتى اليوم المشئوم، ماتت حبيبته، رأيته يجر أقدامه بثياب ملطخة برائحة المقابر، ربما لا أرى جيدًا لكنني أدرك أنه يحاول الانتحار، استفقت من خيالاتي تلك هارعًا له، لكنني ما إن وقفت حتى فقدت وعيي، استيقظت باليوم التالي كجثة رجل لا يعيرها أحد اهتمامًا، لو أنَّ هناك طيورًا جارحة لالتهمتني بيسر، ولا أعلم كيف لم تتناولني الكلاب للآن؟

أريد أن أستعيد قوتي لأنقذ ابني، إن هذا الابتعاد يؤلم قلبي، لقد ابتعد الجميع، حتى ذاتي الحقيقية تركتني، أنا أيضًا لا أحبني!

علمت أنه بخير، حاقد يكرهني بالطبع، من وجهة نظره تخليت عنه، بينما أنا طريح فراشي. جاءني الملعون يخبرني بموعد وفاتي، يا لطيبة قلبه!

كنت يئسًا، غاضبًا منه، لقد ذر الرماد في عيني وعيشني في حاق من أمري، اجترحت آثامًا لم أكن لأصدقها إن قصت لي.

الثامن من الشهر، هاتفت ابني أن يأتي مساء، لم أتحدث، جلست أمامه كالطفل المذنب أمام والدته، أنظر للأرض فقط، أطقطق أسناني وأصابعي؛ بينما تململ هو، رفعت رأسي قائلًا:

- هل تسمح أن أضمك يا بني؟

قرأت في عينه اللوم والبكاء، لكن حاجته أكبر منهما فأقبل، ضممته وانتحبت بشدة، سألته أن يسامحني ويطلب لي العفو هو وأخته، أبقيته بين ذراعي الوهنين قرابة نصف الساعة، وربما الساعة، ثم قمت شاكرًا إياه مبتسمًا، أو محاولًا فقط.

دخلت غرفتي أنام، أدعو الله أن يقبض روحي قبل النهار... صحوت مع آذان العصر، وأول من حدثته هو الله:

(إلهي، لقد استيقظت اليوم، أصبحت وأصبح الملك لك، إن اعتبرنا الثالثة -عصرًا- صباحًا، لماذا استيقظت؟ لماذا لا زلت حيًا؟

صحوت ومن قبلي الهموم، تترتب على جسدي وتلتف حول عنقي، تنحر جيدي وتغزو قلبي، قلبي الذي يصرخ فتكتم الأحزان صوته.

آلامي تتضاعف، تتكاثر وتملؤ دمي، أتجرع سمومها في كئوس صغيرة من الزجاج الهش، كآمالي الصغيرات المحطمة، كأحلامي التي دعست بأقدام من البطش.

هل تتقاعس السعادة عن المجيء؟ أم أن مجيئها خيال زائف؟ أنا اللاسعادة، لا أملك سوى الحزن واللاشعور، أأنا بشري؟ لا أعلم، ولا أعلم إن كان سؤالي حقيقيًا، إن كان جائزًا!

أي حزن وضع في قلبي؟ أي غضب وضع في قلبي؟ حتى أنني لا أعلم مع من ثأري؟

لم أمت بعد، لكنني ميت منذ سنوات، ميت مئات التئار. أنتظر ما يعرفونه بالموت، ولا أقوى على الذهاب إليه بمفردي، ليس خوفًا أو إيمانًا؛ بل الوهن تملكني، يتحكم فيّ كدمية لا تقوى على الصراخ بمالكها، لا تقوى على شكوى ألم الحبل الذي يربطها، وحبل وريدها المحترق.

لا أبكي الآن؛ البكاء يستدعي الطاقة الأخيرة بالجسد، ولقد استنفدت منذ سنوات، قبل ميلادي، منذ تنبأ بي الغيب للقدر.

هذا القدر الذي كرهني لسبب لا أعرفه، وربما أحبني فخصّ الآلام بي وحدي وحرّمني على السعادة، أهلكني وأحرقني... إنني أفقد ذاتي، أفقد آخر ما يربطني بهذا العالم، أنفاسي تغادرني كمسكين لاذ بالفرار يأبى العودة، وأسوأ ما بالأمر، أنني أفقد إيماني...

إلهي، من أنا؟ ما أنا؟ لماذا؟ ألا تدلني؟

حتى الاحتضار نكث عهده معي ولم يكمل طقوسه، ألقاني معلقًا بين حياتين لا أنتمي لأي منهما...)

نهضت مقررًا الصلاة، توضأت ووقفت بين يدي الله على السجادة، قلت: (الله أكبر) فظهر أمامي، قاومت وبدأت القراءة، أتلعثم لكنني صممت، شيء يوقف ذراعي، أنفاسي، قلبي، كل شيء بي يهترئ، سقطت أرضًا، كل شيء يعوقني بينما أكمل الآيات، حتى فاض بفمي ولفظ ما تناولته، أكمل في رأسي الذي أفقد الشعور به، أريد أن يسامحني الله، أريد أن أموت بما يغفر لي، الله يعلم ما مر بي، هو يعلم ما عانيت، علّه يغفر لي، علّه يسامح زوجتي وأبنائي، أنفاسي تعلو، أصارع الهواء لأسحبه وأطرده، يهدأ دون إرادتي، حتى ألفظ آخر الأنفاس، التي لا تغادر رئتي ثانية)

اختفى والده وما يخصه، فضاء شاسع حوله، لا منزل لا ضوء، موسيقا، تصدر من الخلف، استدار ليرى شابتين تلعبان البيانو، على يمينه قصة لرجل متسخ الثياب، رجل على مقعد وشاب راكع ممسك يده، نظراته مليئة بالحب والانبهار، يختفي الأب ويسقط رأس الابن بيده باكيًا، ثم يقف مستندًا على باب حديدي، ممسكًا بأعمدة صغيرة يتسلل منها الهواء، وصوت الطرق المستمر، الأبواب تُرج من كل مكان حوله، والأصوات تعلو طلبًا للبراءة، يهوي ثانيةً باكيًا.

البكاء من الخلف، سيدة سجينة المنزل تحتضن ابنها الصغير، ينفذ من بين ذراعيها محاولًا إضحاكها ويضحكان، الضحك

من مكان آخر، رجل وامرأة بسيارتهما الفارهة، يرد على الهاتف بامتعاض، والدته الملقاة بالمشفى وزوجته تنهره لرده، تومئ له أن يغلق الهاتف.

الجميع يتحول لدخان، رغم الظلام ظهروا وفيه اختفوا... همس مؤذ اخترق الصمت المفاجئ، همس متحرك، يتحرك معه كأنما يراه ويراقبه، يخترق أذن شابة فقيرة، تجثو إثره ممسكة برأسها، يركض ويراها أخته، يسير الهمس، يصل إلى أذن رجل ذليل، يمسك ثيابه المتسخة، يحاول تنظيفها بلا فائدة، ويسقط صارخا إثر الهمس، الذي يستمر بالحركة ليصل بأذن فتاة، تئن لتسقط، ويهرع إليها ليتأكد من وجهها؛ هذا دليل على وجودها، صرخ باسمها قبل أن تلتف، فاتجه الصوت لأذنه، هو همس لكنه كالصراخ، مؤذ، يخترق الأذن والعقل والروح، سقط أرضًا مقاومًا لرؤيتها، لكن عينه لا تطاوعه، أحكمت جفونه الإغلاق كخادم لهم...

فتح عينه أخيرًا، واقف هو بين المقابر، فقد اتزانه وكاد يسقط، لكن صالحًا أمسك به، قال بخوف: «ما الذي يحدث؟ كأنك لست بالعالم، أنادي ولا ترد، أهزك ولا تقاوم، لا شرود كهذا!»

نظر له بعين خائفة، أمسك ذراعه بكلتا يديه، لا يتحدث، صدمته كبيرة، بكل شيء.

دخلا المنزل كأب وابنه الصغير المتشبث به، جلس (صالح) على السرير، بينما استلقى (ثائر) منكمشًا، يحتضن ذاته ويرتجف، يحاول صديقه تخمين ما يحدث له، لكن بلا جدوى.

غفا وبقي صديقته بجانبه، يراقب تشنجاته وحركة بؤبؤ عينه، فمه الذي يفتح ويغلق كمن يستغيث في حلمه...

(رأى والده، أخته، بارديس، ثلاث نساء وشاب، صديقاه وهو، جميعهم بين القبور، الساعة الواحدة صباحًا، المدينة مليئة بالقتل، جيوش من القاتلين اجتاحوها، وكأن بعين كل منهم تلفازًا يرى ويعرف كيف يموت الناس بطرق غير معروفة، مثلًا أحدهم يلقي على وجه الرجل سائل ما، فيذوب جسده كلية أمامه، كل شيء غريب وغير منطقي، لكن الأكيد أن الأمان كالخيال بمدينتهم.

فجأةً، عدد من الناس يعبرون حاملين أكفان عدة، حاول عدهم لكن عدد الناس كبير لم يسمح له جيدًا. حين اقترب القبر الأول اختفت إحدى النساء الواقفات إلى جانبه؛ الثاني أخفى الشاب؛ وهكذا حتى اختفى الجميع وظل مع صديقيه، لا أحد يصدر صوتًا أو اعتراضًا، تأهب الناس للصلاة، لكن رجال آخرين أتوا من بعيد، حاملين كفنين، نظر لصديقيه، لا يعلم من منهم سيختفي، اقترب الكفن الأول من الأرض، ثلاثتهم ينظرون لبعضهم البعض، ينتظرون...)

فتح عينه فجأةً جاحظة، يتفقد كل شيء حوله، هناك ضوء بالغرفة، عين صديقه الخائفة تراقبه.

يستند عليه ليقعد، يطلب الماء فقط، يشرب مداويًا جفاف حلقه، ثم يحاول الحديث، بنظرات مرتعبة يقص على صديقه ما رأى عن والده بصعوبة لكنه يندمج ويكمل كل شيء للنهاية...

اعتدل (صالح) ليستوعب ما قيل للتو، ثم قال:

- إذًا والدك السبب في موت حنان؟ وبارديس؟ التي لا ندري إن كانت حقيقية؟ وبنفس الوقت لا ذنب له؟

سحب شهيقًا كبيرًا ثم أجاب:

- هذا صحيح، وهناك احتمال قوي أنني سأموت خلال أيام.

استغفر صديقه رافضًا هذه الفكرة، وقبل أن يتحدث استطرد (ثائر):

- هناك مصيبة أخرى، أمي، كأنها بارديس، حتى أن أبي التقاها بنفس المقهى وبنفس التوقيت تقريبًا، لم أعد أعي شيئًا سأجن.

وقف (صالح) متأملًا صورة والدته المعلقة، ثم سأل:

- ألم تشعر قط بهذا من قبل؟ كيف هذا وهي أمامك ووالدتك أيضا؟

حرك وجهه مستنكرًا:

- لا أعرف، لا أعرف أبدًا، لم تظهر الصورة ملامح والدتي عن قرب ولم أحفظها منذ صغري بهذا الشكل، هل يتلاعب بي؟

- إن لم تكن موجودة فهذا منطقي، بطريقة ما علمت بلقاء والدتك مع والدك، مثلا أخبرك القصة بطفولتك، وعلقت بباطنك، ومع ابتعادك عن والدك نزعت إلى طفولتك، وحبك عقلك تلك المخيلة، أرجوك يا ثائر علينا مراجعة الطبيب.

رفع عينه فجأة:

- الطبيب، الطبيب يا صالح، سيخبرنا عن بارديس، علينا الذهاب فورًا.

وقف سريعًا متأهبًا للذهاب، لكن صالح أوقفه؛ عليه تناول بعض الأطعمة والراحة الآن، وفي الغد سيذهبان سويًا.

خرجا لتناول الطعام؛ (صالح) لم يكن ليتركه وحيدًا، ولم يرد إبقاءه بالمنزل، علّ الهواء يفيده.

نام (صالح) سريعًا بعد يوم من التنقل بين (فادي) والعمل و(ثائر)؛ بينما ظل الآخر مستيقظًا بعين يحيطها اللون الأسود، ينتظر إشراق الشمس بفارغ الصبر، كل دقيقة كالساعة والساعة كاليوم، لذلك مرت سنوات حتى اقترب الفجر، تنبه فجأةً للمفكرة، فتح الصفحة الأولى، لم يفاجأ، يعلم ما سيقرأ، لكنه لام نفسه على عدم التنبه من قبل.

الأفكار تترتب في عقله، تثور ثم تهدأ، هو المسيطر والمسيطر عليه، صارت حياته على كفه، لكنه لن يتركها هكذا هوانًا، كل شيء له مقابل، ويعلم ما هو المقابل.



في الصباح لم يسمح لصديقه بتحضير الطعام، ذهبا سويًا للطبيب الذي كانت تذهب له (بارديس)، طلب موعدًا، ثم سأل الموظفة بالمكتب الخارجي عنها، خبرته أنه من غير المسموح نفاذ معلومات خاصة بالمرضى، لم يثنه هذا بل ظل يصفها، طولها بشرتها ضحكتها، كل شيء، تململت السيدة قائلة:

- هذه صفات مئات السيدات اللواتي يأتين، ثم لم يمر علي أي فتاة بهذا الاسم في حياتي كلها.

دلف للطبيب بعد ساعة حسب موعده، سأله الطبيب عن اسمه ومعلومات عنه، رغم أنه بالفعل يملكها، إلا أن (ثائرًا) باغته بأسئلته عن (بارديس)، وبعد الكثير من المحايلة، توصل إلى أن هناك احتمالين، إما أنها لم تأت إلى هنا قط، أو أنها أتت باسم مستعار!

غادرا العيادة متجهين لمنزلها البعيد، يدعو الله طوال الطريق أن يتعثر بدليل وجودها...

منطقية سكنية نائية، المباني المتشابهة تحير من لا يعرف المكان، تحرك لمنزلها الذي حفظه رغم الصعوبة، يطرق الباب، لا أحد يجيب، مئات الطرق والنداءات، حتى خرجت سيدة من الجيران، سألها فخبرته أنها انتقلت حديثًا، ولم تر أحدًا يقطن بهذا المنزل

من قبل. تنقل بين المنازل غير المأهول أغلبها، يبحث عن أي شخص يسأله لكن لا أحد يفيده، عبثًا ما يفعل.

عاودا أدرجاهما بصعوبة بالغة؛ فـ(ثائر) لم يصدق ولم يرد المغادرة؛ يعتقد أنه سيجد دليلًا ما لكنه يحتاج إلى الوقت.

في بيته الصغير، قال:

- اللعنة! كنا سنقترب من الحقيقة، لماذا نستسلم؟

- أنت لا تريد أن ترى، أحدهم خدعك أو أنت تخدع نفسك، أفق يا ثائر.

- لماذا؟ لأجل ماذا؟

- أضحت كلُّ الثوابت متحركة، هشّة، هلامية، لا ثوابت في هذه الدنيا، لا حقيقة، لا شيء... لعلَّ فقط الموت هو الحقيقة الثابتة في هذا العالم، هو فقط.

- لعلك خاطئ.

- بل هي الحقيقة عينها.

- أعد النظر.

- قد رأيت هذه المرة بقلبي؛ فالعين كاذبة في معظم الأحيان.

هدأ قليلًا، ثم بادر (صالح) قاطعًا الصمت:

- إن كنت قد رأيت حياة والدك وحنان، لماذا لم تر كل شيء؟

تراجع ضامًا شفتيه، مقطبًا حاجبيه، قال:

- لا أعرف، ربما يريد إخفاء الحقيقة، أو إصابتي بالجنون والحيرة.

- لولا أني رأيت عاصم ذاك واستثقلت ظله لقلت أنك توهمت وجوده.

انفعل قائلًا:

- أنا لا أكذب، أخبرك بكل ما أعلم للآن، لماذا تنحاز لهذه العقلانية البغيضة؟ ألا تهمك الحقيقة؟ هل أنت صلد لهذه الدرجة.

فاء عن غضبه ثانية، معتذرًا عن كلماته الجارحة، قال بشكل جاد ووجه متألم:

- اقترب التاسع من الشهر، انتبه لي ولفادي، أحدنا سيموت، هذا شيء جاد جدًا، انتبه له على الأقل، ليس لدي من أعيش لأجله.

أشفق بشدة قائلًا:

- لا تفعل هذا، تعلم أنك صديقي الأقرب، تمثل روحين لي، روح صديقي وأخي، وروح حبيبتي بك، أرجوك لا تؤلم قلبي، لست صلدًا أقسم لك، أنا هش لا صلابة بي» ثم احتضنه فأجهش (ثائر) باكيًا، وتذكر بكاء والده المقهور، حيث شابه بكاءه المحمل بالانكسار...

غادر (صالح) ليتفقد (فادي) والعمل، ودعه (ثائر) الواجف حتى مدخل المقابر، عاد للبيت متوجسًا، برأيه يفضل أن يسميه المنزل الملعون، دلف بتؤدة فوجده واقفًا أمام فراشه، يبتسم شامتًا بحاله التي آل إليها... لمع الصوت برأس (ثائر):

- كيف حالك يا ثائر.

رد غاضبًا:

- أنا أفضل منك بالتأكيد.

قهقه رغم ملامحه الثابتة:

- رد طفولي، أهذا أفضل ما لديك؟

أمسك سكينًا مباغتًا لقتله، فأوقفه ألم برأسه، أفقده توازنه فسقطت السكين، قال:

- ربما لدينا جسد بشري بنفس القدر، لكن ذهني أقوى منك، لا تحاول، هذا جزاء من يساعدك؟

استعاد قوته فوقف متسائلًا باستنكار:

- تساعدني؟

- بالطبع، أقدم لك الحقائق، أقدم لك أموال العمل التي لا تستحقها، أقدم الأفكار، أيوجد ما هو أكبر من ذلك؟ بل ولدي عرض جديد لك.

صرخ بوجهه:

- لا أريد شيئًا منك، أموالك ملعونة كأنت، أفكارك خائنة وذكرياتك كل شيء.

- حسنًا لديك خياران، إما ألبي طلبك وتموت، أو يموت صديقاك وتكمل تابعًا لي فقط، هذه حرية كبيرة إن علمت، أموال ونفوذ، كل شيء يصبح ملكًا لك.

- أقتل صديقيّ؟ أمجنون أنت؟

- أحدهما سيموت، لماذا لا تنجو أنت؟ الصديق الحقيقي يتمنى لأصدقائه الموت.

ثم قهقه ثانية. سحب (ثائر) شهيقًا قويًا ثم قال:

- لن أرضخ لتلاعبك، تريد أن تصبح كالرجال، إذا خبرني بمطلبك كرجل.

- كل ما تريده هي؛ وكل ما أريد هو كل ما تملك، أنت، أن تصبح لي.

يعرف أنه سيندم، لكن فكره يقوده للجنون، ابتلع ريقه وقال بثبات يخفي رجفة داخلية:

- أرني بارديس والحقيقة، وسأقدم روحي.

- ستراها اليوم التاسع، تراها وتصبح روحك لي، اتفقنا؟

- للأسف...

في المشفى جلسوا الثلاثة سويًا، كل يحمل همًا مختلفًا، أحدهم سيفقد والده؛ الثاني سيفقد حياته ولا يدري أحياته وهم أم حقيقة؟

والثالث يخشى فراق صديقيه ويحارب هذا الشعور؛ يرجعه لهذي ثانيهم، وربما هذا يمثل فقدًا من نوع آخر. قال (فادي) معبرًا عن ألمه:

- بعض الأشياء تشبه القيود المتشابكة حول عنقي، فإن قررت الحراك، اشتدت مقاومتها لي، وأموت.

أمسك ذراعه (ثائر) ملقيًا كلمات خوف بأذن صديقه:

- ليس كل ما حولك حقيقة، وليست كل العروض حقيقية، لقلبك صوت وكذا عقلك، الحقيقة أمامك، لا تتجاهلها.

رمقه (فادي) نظرة خاطفة تحمل الخوف، كمن كشف سرائره، وأشاح بنظره خافيًا نيران قلبه المضرمة بعينه، ثم غاب عن العالم وغرق بين دوامات الفكر القاتلة.

(ثائر) استمر بتوجيه النصح دون أن ينتبه لشرود صديقه؛ و(صالح) لا يملك سوى الاستماع، حتى انتبه لشرود أولهم ونبه لذلك (ثائرًا). عم الصمت إلا من صوت الممرضات وأنين المرضى وإرشادات الأطباء، اخترقه صوت (ثائر):

- أيا صالح، سأموت أولًا، أما فادي فأمامه شهر آخر، أرجعه عما ينوي، أنا دليلك أن ما أقول حقيقة، عدني إن تأكدت بموتي ألا تتركه.

استنشق (صالح) شهيقًا تلوث بغضبه، ثم أخرجه حديثًا:

- ثائر، أنا لا أحب هذا الحديث، لن يموت أي منكما، أرجوك توقف.

يعلم أن جزءًا منه يصدقه، ينكر لا تكذيبًا أو سخريةً، لكن مخافة حتمية هذا القدر. قدّم له ورقة عن النوبة القلبية، أعدّها ليقدمها (صالح) باليوم العاشر من الشهر، أي بعد يومين، امتنع عن ذكره أمر وفاته حتى لا يعارض أو يعاند.

مرت ساعات من المواساة والتفكر، كل في مصابه، عاد (صالح) و(ثائر) لمنزليهما...

بين المقابر يقف كالشبح المخيف، (عاصم)، يبتسم كمن يحب الرجل أمامه، توقف (ثائر) أمامه شامخًا، واثقًا من خطاه، قال:

- هل ستريني بارديس الآن؟

- غدًا، قبيل موتك، أنا عند عهدي، وعرضي الآخر لا زال قائمًا.

- أي عرض؟

- مثلًا سأريك بارديس، سأجعلك تحيا كأنها لم تمت، بل وربما تتزوجها أيضًا، يموت صديقاك، وتحيا معها هانئًا، تتجبا الأطفال، وتخدمانني.

- تعني أنها هلوسة أنت صنعتها؟

- لا يمكنني الفصل في هذا الأمر، راجع لك.

مسح رأسه، أيحيا معها؟ لكنها ماتت، أم أنها وهم وعليه قبوله؟ صديقاه! أيقبل موتهما؟ (فادي) سيموت، لكن (صالحًا)، أيموت؟ أيحمل ذنبهما؟ أويحمله من البداية؟

رفع رأسه ثانيةً، مبادرًا بذكر قراره النهائي فقاطعه (عاصم) مبينًا أنه يعلم. قال (ثائر):

- كنت سأموت على أية حال؛ لا تظن أنك انتصرت وصنعت داخلي رغبة لا أريدها.

- أعترف لقد كان الأمر صعبًا؛ كيف أحصل على روح شاب يريد الموت بالفعل؟ ليس لديه ما يخسره؟ فما الذي يغريك؟ والدك كان سيموت لأجل النقود؛ وأنت؟ ما الذي تموت لأجله؟ أنت تموت لأنك لا تريد الحياة، لكنك لن تسلمني حياتك، حتى علمت؛ تموت لتراها مرة أخيرة، تموت لتراها فقط.

من خلفه تقدم ظل رقيق، كجزء من الهواء لكنه يشبهها، وظل رجل ذي عباءة متسخة يستميت لتنظيفها، يصرخ الرجل بأن يهرب، وتبتسم له الفتاة. التفت لها متجاهلًا والده، ذاكرًا اسمها برفق: «بارديس» مدّت يدها ومدّ يده، إلا أن الريح اشتدت فجأة فأذرت التراب حتى أصاب عينيه، تراجع ممسدًا عينه بيده، مدافعًا عن وجهه بها، يسعل ويمسد عينه حتى يطرد الأتربة التي نزلت بها، هدأت الرياح قليلًا فرأى والده يحتضن أخته المتوفاة مفجوعًا؛ استدار وجهه ليلاقيه ويندهش، قال: «لا بني، لماذا؟»، ثم اختفيا بين ذرات الهواء...

عذا المكان على حين غرة، كأن ريحًا لم تمر هنا منذ أسبوع، سحب نفسًا كبيرًا، ليخرجه نهرًا للماثل أمامه، إلا أنه حبس أنفاسه بقوله:

- هناك شخص آخر نسيت أن تطلب مني رؤيته.

- لم أطلب سوى بارديس، لماذا تتلاعب؟

قهقه قائلًا:

- أنت يا ثائر، ألا تريد أن تعرف حقيقتك؟

ناظر الأرض بعين تائهة غاضبة، أهو أيضًا كذبة؟ هل هو رجل غير الذي يعلم؟ رفع عينه مدعيًا التحدي، رافضًا حديثه وعروضه المشتتة، ثم هرع للداخل محكمًا إغلاق الباب، سمع الصوت برأسه:

- حسنا، نلتقي غدًا يا صديقي.

ركع ضاغطًا رأسه بكلتا يديه، ضاغطًا ملامح وجهه أيضًا، متحدثًا بفم شبه مغلق:

- يا إلهي، كيف المفر منك؟ ألا يكفي الباب؟...

طوال اليوم يفكر، ربما عليه التضحية، هي تستحق، لكن صديقيه أيضًا يستحقان الحياة؛ هو، من هو ليحيا؟ هل حقًّا هو شخص آخر؟ هناك حقيقة عنه؟ ربما تال به، إنسان مثله سهل استقطابه لأي فكرة مجنونة.

في المساء، كتب رسالته الأخيرة، يقص ما يعرف عن ذاته، بعد أن كفَّ عن تشتت الفكر ذاك كفًّا:

(عزيزتي بارديس،

حبيبتي، غريبة هذه الجرأة، لكن البعد والموت يفجر ما تكنه القلوب، فيجسر المحب على الإفضاء بحبه، كأنا.

نعم، لقد أحببتك، ربما هذا ما يجعلني أكثر فصاحةً الآن، خاصةً وأنا رجل بلا عقل متزن.

لماذا لم أخبرك؟ لأنني لا شيء! أين كنت وأين أنا؟ نجمة بعيدة أنت؛ ودودة أرض أنا، أحفر بين التراب ولا أعرف سوى ملمسه؛ أما أنت فمضيئة الكون، مانحة الحياة لكواكب أخرى، لمخلوقات تشبهني، وربما لي.

أحب الظلام، لطالما أحببته؛ أختبئ به، حين أخاف، أهرب، حين أبكي، وحين أشكو لك، ولأنك دائمًا حية به نجمتي.

أنا رجل عادي، عادي جدًا، تقليدي ممل، مثلًا أتذكر الكلاب التي تأتي لنطعمها كل صباح، تقول أختي إن لديهم ستة ألوان؛ وأراهم بني وبني وبني...

تعرفين أنني قاطعت القراءة مؤخرًا لا لأجل العمل؛ لأنك تحبينها، لأنك تكتبين لي، ولا يمكنني القراءة لغيرك؛ غير هذا اكتشفت أن ما يكتبه الآخرون ليس حقيقة.

لماذا الروايات دائمًا أبطالها شباب؟ لأنها الفترة الأسعد والأكثر حيوية بحياة كل شخص؛ يمتلك النضج، الأهداف، الأحلام ومفاتيحها، فما بالي بطل لقصة مهترئة قديمة؟ أو ربما لست

بطلًا أبدًا، أنا الرجل الأخير بالرواية، الشاب العادي الذي يمر بجانب البطل فلا يكترث له أحد، الذي يموت بمشهد القتل الأول الذي نتعرف من خلاله على القاتل، بينما القتيل لا يعنينا بشيء سوى كيف يرشدنا إليه؟

أنا سائق الأجرة الذي يمر عليه جميع أبطال الحكايا، يصرخون بالهواتف، يعشقون، يبكون، لكن كل ما يقول أو يفعل إضافة بالقصة لا تفيد، وجب بترها!

أنا صاحب رقم مائة وعشرة المنتظر للكشف عند الطبيب، بينما الطبيب الآن يدخل الحالة رقم مائة وخمسة والبطل رقمه مائة وستة، ولعلي غادرت لأن ابنتي -غير المهمة- هاتفتني لإصابتها بوعكة ما.

ولا أعرف كيف أصفني بـ(أنا) كمن يؤمن بذاته، بوجوده. يموت البطل فيما بعد ببطء شديد، كأنَّ موته يستحق أن يكون بطيئًا ليوثق، بينما الآخرون مثلي يموتون في لحظة، حادث سيارة، قتل بلا تفاصيل، لا يهم؛ والكاتب نفسه لا يبكي على البطل ساعة واحدة إن قتله.

علمت أنه مخطئ، السيارة لا تؤلم كالموت البطيء، البطل يجب أن يموت سريعًا تقديرًا لسيرته، والأشقياء مثلي يموتون ببطء، هكذا اعتدنا، يشبه حديثك أليس كذلك؟ ربما استوحيت أفكاري منك وعرفت قدري.

عندما حاولت الانتحار، وكثيرًا فعلت، ملت للطرق البطيئة، لقنتني دروسًا لم أستوعبها سوى الآن؛ في كل مرة كنت أصارع لأحيا، وفي كل مرة اخترت طريقة، اخترتها ليبقى لدي مجال العودة، أنا جبان جدًا يا ارديس. ولعل من يسطر حروفي هي الرغبة، رغبة الانتحار، سأموت وأُنسى، ليس كأنني لم أكن، بل لأنني لم أكن.

أنا فقير، إذًا لست موجودًا، يخالني الجميع الشاب المهذب الخجول، حتى أنني لم أجرب السجائر قط، حتى أنني أرفض دائمًا تجربتها؛ مخافة الإدمان. الظاهر أنه حسن تربية؛ والواقع أنه الفقر، الفقر الذي يخيفك من التمسك بشيء لا يمكنك الحصول عليه، وبالفعل سقطت، سقطت بحبك، أأنت حقيقية؟ تحطم قلبي بموتك، لا يمكن أن يتحطم قلب إنسان لأجل وهم، أليس كذلك؟

سأراك غدًا، الإجابة عندك فقط، أعلم هذا، هو لن يريني شيئًا جديدًا، لكنك ستفعلين، ساعديني.

يقول أنه يستطيع إعادتك للحياة، أتصدقين؟ لو كان الأمر سهلًا لوهبتك حياتي، لكن عمرًا كهذا من الأفضل دفنه، ابتلاء لا هبة.

ليس ذنبي ولا ذنب والدي، هذا ما قال صالح لي، إن لم يكن ذنبه، إن كان قدري كره العالم لي، لماذا لم يحبني هو على الأقل؟ أعلم ستقولين أحبني، لكنني شعرت أنه صدق كذبته وكرهني، أنا مشتت وخائف، ضال، كأهيم يتقفى أثر سراب الصبار ممنيًا نفسه بالراحة، التي لم تكتب لي.

لقد سقطت وقمت، خفت وغرقت، هكذا كانت حياتي، أبكي يومًا وأيام ينحسر الدمع بعيني، يؤلم قلبي المسجور به، تنتفخ عيني الحمراء رافضة إطلاقه، تؤلمني ويؤلمني أنفي المحتقن، تضيق أنفاسي وأصبح كالجثة التي لا تشعر بشيء.

ماذا تفعل يا ثائر إن أردت البكاء ومآقيك جافة؟

تبدو كرجل بارد لا يشعر، أنت لا ترد، كل شيء يؤلم قلبك، الذي حتى يحاول البكاء ولا يستطيع، لكنه يتألم، وتعلم أنه يتألم، لكن وحدك تعلم.

هل تفهمين ما أقول؟ أم أنني أهذي حتى بحديثي معك؟

سامحيني، إن كنت سببًا بموتك، لا أعلم، سامحيني، وخبريني الحقيقة، التي أعلمها، بيد أن الخوف سيقتلني، bارديس... لا تتركيني، أنا قادم إليك غدًا، انتظريني أرجوك، إن كان لي وجه للدعاء؛ فأدعو الله أن يعوضني وأنت بالجنة، أيستحق رجل مثلي؟ ليت شعري!

إلى اللقاء غدًا حبيبتي، سألقاك مرتين...

محبك

ثائر)

طوى الورقة وأدرجها أسفل بعض الكتب الخاصة بأخته، ثم انشغل بكتابة طويلة على هاتفه، أرسلها لصديقه (صالح).

تكوم بفراشه، يلعب كالأطفال على هاتفه، يده تتقن اللعب، وذهنه يرتب مئات الأفكار، أيموت الأبرياء؟ أم أن لا أحد بريء؟ مخير أم مسير؟ يمكن أن يكون الأمر برمته كذبة، ويمكن أن يكون هو الكذبة، لا يعلم، وربما لم يعد يريد أن يعلم.

داهمه ألم شديد برأسه، قلّب رأسه بين الوسادة، يضغطه بها، يتشنج جسده، وتقبض يداه على الغطاء البسيط، يلتف يمنة ويسرة كمن يختنق، يعلو أنينه؛ فحنجرته قررت تخليصه من الألم، لكن هيهات! لا يتوقف بل يزداد، يشعر بدقات قلبه، كالدف يضرب رأسه، هناك حركة، الدماء تكاد تنفجر؛ الأوعية لا تكفيها، القلب لا يكفيها، يبقي يده اليسرى على رأسه المتألم؛ واليمنى تضغط قلبه، لا مجال للتفكير، الألم الجسدي يفقد الذهن أحيانًا قدراته.

ظل هكذا ساعتين، يحاول الهرب بالمسكنات والنوم، حتى سقط في غياهب النوم أخيرًا...

صوت بعيد، يذكر اسمه ويكرره، يدنو الصوت ويتبينه داخل عقله، يصطحب طرقًا يهتز لأجله الوجه كاملًا، يفتح عينه بوهن ويراه أمامه، لم يتفاجأ، ربما اعتاد وجوده أكثر من اللازم.

الوساوس بعقله غير المتوقفة لم تمنعه من غسل وجهه وأسنانه كرجل أعمال لديه مواعيد يهتم بها، بالغرفة الأخرى يبدل ملابسه

ليرتدي أول قميص ارتداه بأول لقاءاتهما، يبلل شعره ويمرر يده بين خصلاته، تأنق كرجل واثق في موعد غرامي.

خرج أمامه بابتسامة لم يتوقعها (عاصم) الذي أبدى إعجابه مبتسمًا، آمرًا إياه أن يتبعه، تعجب (ثائر)، إذ أنها لم تدفن هنا.

خرج (عاصم) واختفى بعيدًا عن الباب؛ تقدم (ثائر) بهدوء، الشمس قوية، تكاد تلغي كل شيء من شدة ضوئها، قبل أن يستر عينه بيده سقط أرضًا...

استفاق في فراش وثير، أو استفاقت، يعلم الآن الكثير، عنها، وعنه.

(أنا بارديس، أعيش في ظل شبابي كعجوز عاشت مائة عام بمائة قرن مختلف، كنت طفلة بريئة، أعرف أن لي عائلة رائعة، أبًا محبًّا، وأمًّا لا بأس بها، ربما لم أدر كم تهملني هي سوى متأخرًا، أعني وأنا بالسادسة.

العائلة الكبرى، لا أعلم عنهم شيئًا، ربما لي أعمام انتهت زياراتهم عقب وفاة أبي وزواج أمي، التي حذت بذلك حذو والدتها، وتطرق لأذني ذات مرة همس بوجود خالة وثلاثة إخوة رجال لها، لا تحبها أمي، ولم تحبني لأني أشبهها كما أشبه بالفعل أمي.

لم أسلم من العنف، من تدمير نفسيتي وأنفاسي وصحتي، حال بهم الحال لضربي، كأنني ملك لهما، أمي وزوجها البغيض، رجل لا يساوي قلامة ظفر، تنصره أمي عليّ وتقهر قلبي الصغير.

كلما سقطت؛ رفعت رأسي محاولة النهوض، ورأيتهم أمامي يناظرونني، أتهرب بوجهي، أجدهم يدهسونه. بالبداية كنت أتهرب خوفًا وأنتظر منهم مساعدة، حتى لو عنفوني؛ والآن أبعد وجهي مضدًا من شرهم، خوفًا على نفسي من غدرهم، لقد كرهتهم أكثر من حبي لهم، ووجدت سلواني بخمسة أشياء: ذكريات أبي وحاجياته الخاصة، التي لطالما تسللت لسرقتها ودفنها أسفل فراشي؛ القراءة، حيث هربت بها لعوالم أخرى، لطيفة ربما، بيد أنها أظهرت لي حقائق مخيفة أفسدت أساطيري الجميلة الهادئة؛ الدموع، هي أصدق التعبيرات حينما تنبع من القلب، حزنًا أو فرحًا، كلاهما صادق؛ النوم، سحر يفقدنا الزمن، نحن نتمنى أن يقف أو ينتهي، والنوم يمرره بلا شعور؛ وأخيرًا التفكير، هو هبة ولعنة، كان وحدتي وعزلتي وصمتي، لم أعد أقوى على المشاركة والحديث، رغم مئات الردود بعقلي على كل شيء، وربما لشدة الزحام صمتت الكلمات.

لم أفهم العالم، لكنني فهمت نفسي؛ هذا سبب كاف لإنهاء الحياة...

بالمراهقة تعلمت عادة سيئة جديدة، أستخدم الأدوات الحادة لجرح يدي، كأنما أهرب من أذى نفسي وجسدي منهما بهذا، أعاقبني وأكرهني كما كرهاني.

ازدادت وحدتي وابتعادي عن الجميع، غرفتي أفتحها فقط لأحضر الطعام وأعود إليها ثانية، كل نشاطاتي بها، عالمي الجميل البشع، به جمال، ولا تتركه بشاعة العالم، حتى خيالي تأثر به.

لا أظن أحدًا يعرفني بالجامعة، حتى أنني أحيانًا أتناول الطعام أو أتفقد المكتبات وأعود للمنزل، لا أصدقاء لي، وأعتقد لو أتيحت الفرصة سأكون طبيعية، أشك في اعتقادي، كاذبة أنا.

توفي الرجل البغيض بعد انهيار والدتي، وتغير الحال، كلتانا مريضتان تحتاجان العلاج، قبلت بعد معاناة، أنا أفهمني، أعلم ما بي، حصلت على القدر الكافي من الوحدة والتفكير ملايين المرات بشأن ما أشعر، لا أحتاج طبيبًا، أحتاج التنفس فقط! وربما الموت، إن لم أكن ميتة من قبل، ميتة عدة مرات، تعبير قاصر جدًّا، يرجع لعقلنا ضيق الأفق، نقول أننا أموات على قيد الحياة، والحقيقة أنه تشبيه بشري لإدراك محدود عن معنى الموت، رغم كل ما تعلمناه عنه، إلا أننا لا نزال نظنه مجرد التوقف عن الحياة، بينما هو كل الحياة...

أمام بناية الطبيب وقفت مطولًا، أتأملها مدركةً أنني سأدخل دوامة تسرق فتات عمري المتبقية، أخطو خطوة وأتراجع خطوتين، أنتظر إشارة إلهية أتحجج بها، وهنا رأيته، (ثائر) الضعيف، يشبهني رغم أن ملامحه على النقيض تمامًا، دلف للمقهى كمن يختبئ من الجميع، ودلفت خلفه أراقبه، يعد نقوده ويتفقد من حوله مخافة إحراج أحدهم له، طلبت مثله تمامًا، هو فرصتي الجديدة للحياة، نظراته حركاته، شيء يشبه والدي، وشيء يشبهني أنا! إن سبب الوحدة الأول كثرة الناس وليس فقدهم أو افتقادهم، وهو ما رأيته بعينه الناقمة، كعيني.

اعتدت المجيء بمواعيد الطبيب الوهمية لأرى طبيبي الخاص، آكل وأشرب مثله تمامًا، صانعةً حياة جديدة ربما تناسبني. قديمًا قالوا الفقراء سعداء ويكفي أنهم يضحكون، لكنه لم يضحك، كذب ما قالوا إذًا، كذب ما حاولت إقناع أمي به طوال تلك السنوات لتكره زوجها.

الثاني عشر من يناير، اقتربت من طاولته، سألت النادل عما طلب وطلبته بصوت عالٍ ثانية. أنشغل به قليلًا وأنشغل بالفراغ، الأصوات، الطعام، الاختلافات، كل له حياته، هل يمكن أن أكون محور الكون وكل البشر وهم صنعوا ليخلقوا لي حياة؟ لقد فشلوا إذًا. يا إلهي مجددًا أفكار مريضة! التفت إليه فوجدته يجتذب انتباهي، ومن هنا عرفته عن قرب، بل أعرفه من البداية، من قبل لقائه، صنعه خيالي مئات المرات كرجل أحلامي الذي تمثل به، لم يكن مثاليًا؛ ولامثاليته هي المثالية بعيني تمامًا.

أصبحت أكتب له، وتحسنت قليلًا، لأجله فقط، نجح أحدهم أخيرًا في منحي حياة جديدة، حياة يمكن أن نحيا بها، ولو مؤقتًا.

بعد شهر، في منزلي، أشعلت الشموع أمامي أراقب تراقص النيران، أحميها من الهواء، تلاعبت قليلًا بها بأن مررت أصابعي يمينًا ويسارًا خلالها، حتى أطفأتها، انتفضت فجأة لصوت والدتي من الخلف: «حذروني منه قبل الزواج، لم أصدق، صوت داخلي أخافني، يقول ماذا لو أنهم على حق؟ ماذا لو أنه يميل إلى عرق لئيم؟ بيد أنني كنت أدحض هذا الظن لشعوري أني أخونه. سامحيني، ليتني استمعت لهم وأنصت!»

التفت لها، وجهها شاحب يطالعني بحنق وحزن شديد، خبرتها أنني أفضل، أن الطبيب يساعدني، وأنني صرت أمارس الرياضة، ثم ضحكت عائدة لشموعي قائلة: «سأنتحر بصحة جيدة»

بكت، وما أكثر بكاءها! يحزنني لكن لا حيلة بيدي، أشفق وأقسو في لحظة واحدة، كلاهما داخلي لا يتبدلان.

عدت لغرفتي بعد مواساتها أحدث (ثائرًا)، أقف أمام المرآة كأنه صورتي: (أيا ثائر العزيز، هل اشتقت لشيء تمنيته؟ شيء لم يحدث؟ أنا دائمًا أفعل، أشتاق ليوم لما يأت أكون به فرحة، أنت وأمي بخير سعيدان. الأحزان ليست فراشة، لكنها تحوم حولي بسعادة، أتسعد الأحزان؟ هل هي كائن خفي يتغذى علينا؟ أظنه إذًا بصحة جيدة.

أترى؟ أنا متعقلة جدًا، لم يشعر البعض أنني مجنونة؟ أعلم أن البعض من وحي خيالي، لكنهم سيصبحون حقيقة مثلك، أو أنت فقط من نجا من خيالي، يا إلهي هل جننت يا بارديس؟ هل جننت يا ثائر؟

رغم كل السوء آمنت بالحب، ضوء يخترق العتمة ويصل للقلوب الجافة، قصص الحب الرائعة تنتهي بالفقد بعد أعوام قليلة من الزواج، ربما أشهر، وربما تنتهي بالموت بعد سنوات من العذاب، الجنون والولع؛ بينما الارتباط المخيف يستمر سنوات، كسجن مؤبد لا تخفيف لمدته، هل قدر البشر العذاب؟ أم أنني أهذي؟ لهذا أمرنا بألا نعرف الغيب، أليس هو المستقبل؟ ربما هو السرائر، والسرائر تكشف نوايا الأشرار، وحب من نتركهم ونكسر قلوبهم.

أهذي وأهذي، سامحني يا ثائر!

هل يعجبك شعري اليوم؟ لا بأس به أليس كذلك؟ نعم نعم أعلم بالأمس كان أفضل، وانظر لوجهي، باهت، لماذا؟ ثائر أظنني سأخلد للنوم)

رأيت رجلًا يشبه (ثائر)، وأدركت أنه والده، يرسل الظلام خلفي، وأركض أنا، ظلام موسوم بروائح الموتى، أركض خائفة، قلبي يصدر صوتًا يكشف اتجاهي لهم، و(ثائر) أمامي، أحاول الوصول إليه، ينظر لطرف آخر، أحاول، أركض وأحاول، سأمسك به ولكن...)

استيقظت، المرة الثانية التي أحلم به، أضأت الغرفة بسرعة، يدي تضغط على قلبي ملتمسة ألا يفتضح أمرنا بسببه، لا أمر، أنا لا زلت عالقة بالحلم، جلست بغرفة الاستقبال أشاهد فيلمًا لا أحبه يعرض على التلفاز؛ علّ ذهني ينشغل به.

سألت (ثائر) عن والده، كنت سأفضي إليه بما رأيت، لكنني تراجعت سريعًا؛ ربما أضغاث تؤذي علاقتهما أكثر، ربما...

أما (ثائر) العزيز، فقد أرسل لي أغنية يسرق قلبي بها، أحمق! لا يعرف أنه سرقه قبل أعوام من رؤيته، وليت الأمر حقيقي، فأترك حياتي بين يديه...

تعرفت على فتاة بالمشفى التي تتلقى فيه والدتي العلاج، تقربت مني بود لم أعهده، ولا أبادله عادة، إلا أن حالتها الصحية استدعت ذلك. مع مرور الأيام أدركت أنها الظلام الذي أرسله والده، تريد حياتي مقابل استعادة والدتي صحتها، الأمر الذي رفضته، بيد أنها

هاجمتني بزيادة هلاوسي وآلام الرأس، حمقاء! هذا أمر طبيعي بالنسبة لي، نعم يؤذيني، لكنه لن يرضخني لها.

خبرت أمي عن (ثائر)، أعلم أنه بشكل ما قادر على مساعدتها، وأفرغت هي شتات عقلها به رغم وافر سعادتها بمعرفته، أحبته وخبرتني سرًا أنها تعرفه من زمن سحيق، قبل ولادته، وفهمت سبب أسئلتها الكثيرة حينها...

أما عن (عالية) فقد غيرت عرضها لي، أنا أو (ثائر)، إن لم أمت سيموت هو، وإن ضحيت سأحظى بكثير من الهبات غير صحة والدتي، قبلت هذه المرة، ظاهريًا، فلا أصدق في قدراتها، وإن صدقت فلا أقدم روحي لمن مثلها، وأومن أننا يمكننا الانتهاء من قدراتهم إن رفضنا جميعًا، أرفض أنا، ثم هو، ثم من تهدده بقتله... وهكذا دواليك، ستنهار بالتأكيد.

أرتني (ثائرًا)، الكثير عنه، يرتوي قلبي برؤيته، وأحببت اللعبة، حتى اليوم السابع من الشهر، قبل الموعد المحدد بيومين فقط، خبرتني أنها تعلم ما أفعل، ما أفكر به، وسأموت شئت أم أبيت، ولو أوصدت جميع مداخل ومخارج المنزل، قيدتني، تذكرت حديثها (صديقك الحقيقي هو من يتمنى لك الوفاة، هذا العالم بغيض، وأنا صديقتك) لكنني حورتها: صديقي الحقيقي هو من يتمنى لي الانتحار.

الثامن من الشهر، أفضت برسالتي الأخيرة لأكثر رجل أحببته مع أبي، دسستها أسفل طاولتنا بالمقهى، ثم عدت للمنزل، سينتهي اليوم خلال دقائق، مددت ذراعي أمامي وبسرعة قبل أن أتراجع مررت السكين بشق طولي يبدل لون الأوردة الزرقاء للأحمر السائل، يحمل

دماء أبي ولطافته، حب ثائر وحزنه، ألم سنوات مرت، شق اخترق ندبات عرضية كونتها السنين، جلست أرضًا أستند على فراشي وأراقب دمي. أشرعت الباب المغلق مسبقًا فجأة، كأن المفتاح لم يلتف داخله، صرخت بي: «ماذا تفعلين؟ بدأ اليوم وستموتين لأجلي أنا»

اخترق إثر كلماتها ألم شديد بقلبي، يعتصره، صرخت وأمسكت بالسكين ثانيةً، تراجعت ظنًا أنني سأقتلها، قائلة أنني لن أستطيع، بدا شبح ضحكة ساخرة على فمي الباهت، قلت: «على أساس تفهمين ما أفكر به» وأخذت أمزق أوردتي بعنف حتى أموت قبل أن تستطيع هي، غشي علي ومت -الحمد لله- منتحرة، مبتسمة لانتصاري عليها، ولانتصاري لأجل أبي و(ثائر) حبيبي).

xxxxx

استفاق فجأة في فراشه، يتنفس بصعوبة، أنفاسه عالية كصوت قلبه الذي يضغط صدره، يشعر بثقل شديد به، يبعد قميصه كأنه الضاغط ولكن بلا فائدة، رآه أمامه ولم يقف، قال بصعوبة: «ابنة خالتي؟ أم أنك تخدعني؟ لا يمكن حدوث كل هذه المصادفات»

- نعم لا يمكن، ربما هذا خيالك الذي يحل عقد الفكر بطريقته، العلم عندك ليس عندي.

- نكثت عهدك وخدعتني، لماذا لا تقول الحقيقة فقط؟

ضحك تاركًا إياه مقيدًا بالألم، توقف ذراعه فجأة، يضغط بقبضة يده على قلبه، لكنه تسمر على هذا الوضع، يسبه ويلعنه، لكن فكه أيضًا تجمد، شيء غير يده يعتصر قلبه ويحقن الدماء بشرايينه،

الأوعية الدموية لا تكفي دماءه، تثور نافضةً جسده المتعرق، ويثور عقله بالتناقضات، ربما هي حقيقة، وربما صنعها عقله من سنوات؟ هل يسامح والده؟ أم أنه ضحية فقط؟ وهو، هو ضحية؟ أم آثم مثلهم؟

رآها أمامه، تقترب، مسحت وجنته بيدها، سألها بلا صوت إن كانت حقيقة لتجيبه: «قلبك يعلم اسأله» هز رأسه بصعوبة نافيًا، يرجو الموت أن يقتله، قال بصوت غير مفهوم لتخلل الأنفاس: «نفذت اتفاقك أيها الموت، ساعدتني لأراها، حان الوقت لآراك»

الألم لا يوقف أفكاره المشتتة، عقله يخبره أنها وهم وكل ما رآه صنيعة خياله؛ وقلبه يخبره أنها حقيقة وحبها حي كروحها الباقية حوله...

تقلبت معدته فجأة، وفرغ فاه المرتجف مفرغًا بقايا طعام غارقة بحمض المعدة، أغرقا هاتفه الذي يرن بجنون، عينه تغلق وأنفاسه الثائرة تهدأ، كل شيء مظلم، كل شيء مظلم للنهاية.

سحب (عاصم) هاتفه، نظفه بيده مبتسمًا، وقرأ الرسالة الواردة بصوت (ثائر) بهدوء:

- لقد توفي فادي، أين أنت؟ لا تقلقني أرجوك تعال للمشفى.

رفع نظره للجثة أمامه ثم قال:

- لقد ربحنا أكثر مما تظن أيها الصديق.

بلل (صالح) الأرض، لينهي مراسم دفن صديقيه، ركع أرضًا جاهشًا بالبكاء، ساعات مرت حتى انفض الجمع من حوله، وانتهت مواساة المشفقين، دلف للداخل متفقدًا المنزل، الذي ما بقي فيه ظفر، رتّب أشياءهم الخاصة جميعًا في زاوية ما وخرج مسرعًا. عاد بعد ساعة بحقيبة كبيرة ملأها مفرغًا المنزل تمامًا إلا من الأثاث المهترئ، تفقد الخارج حتى وجد مبتغاه، وردة بنية ذابلة جافة، متقطعة يكاد يخفيها التراب، أخذها والحقيبة للمدخل ثم عاد بالبنزين في يده، أغرق المنزل داخله وخارجه، للوراء قليلًا ابتعد، ثم ألقى عود ثقاب مشتعل، ثوان وصار المنزل كبركان قاتل يغطي سماء المدينة بغازاته السامة، سعل كثيرًا مغادرًا المكان...

بشرفة منزله، زرع خمس وردات، أسماهم كصديقيه ووالد (ثائر)، حنان، وأخيرًا بارديس...

دلف لمحل عمله مناقشًا رب العمل فيما يخص إعداد (ثائر) الأخير، تلاعب الشيطان، والذي أرسله بدلًا عن حديثه عن النوبة القلبية.

وقف أمام الميكروفون قائلًا بحنق: هناك شياطين الجن، وشياطين الإنس، لكن الجديد أن يتواجد شيطان إنس وجن، والأدهى أننا نعلم، ونطيعه! يمنحنا حياة رائعة، نحقق كل أحلامنا حتى...

أسطورة دكتور فاوستوس الشهيرة، أكثر من عشرين عامًا يحياهم الشخص سعيدًا، لكن السؤال: أسعادته حقيقية؟ حبيبته هي حبيبته حقًا؟

ألا يوجد هذا الشيطان بيننا؟ يمنينا كل ليلة ونذعن له؟ كم حققنا أحلامًا عن طريقه؟ كم امتلكنا وكم سعدنا! أليس كذلك؟

بعد شهرين انتعلت قدما (صالح) الطريق لنزل صديقيه وحبيبته، رأى شيخًا كبيرًا ضريرًا، شابًا ذليلًا متوترًا وزوجته وطفلهما، يمسح جبهته ويتفقد العالم المخيف الساكن حوله؛ زوجته تمسك ذراعه وتحتضن الرضيع محتجزة دموع القهر بمدامعها القوية. الشيخ يريهما البيت بشغف كبير، كمن يقدم لهما هبةً عظيمةً، والذي يبدو كبيت مأهول لم تمسه النار قط!

أغمض عينه بسرعة هربًا، هل يساعدهما، أم يذهب بطريقه؟ إن تحدث، هل ينقذهما حقًا؟ هل يتورط بما يعرض حياته وحياة من حوله للخطر؟

صراع العقل والقلب، المنطق والعاطفة، تشتت قادر على الفتك برأسه خلال ثوان، وإخافته لبقائه في هذا المكان خلالها.

لم يدم تفكيره، أوقف سيارة أجرة عائدًا لمنزله، مقررًا ألا يعود لهذا المكان أبدًا...

تمت بحمد الله...